الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العـالي والبحث العلمي

جامعة الحاج لخضر –باتنة–

كلية: الآداب والعلوم الإنسانية

قسم اللغة العربية وآدابها

المقاومة الثقافية في رواية

"رصيف الأزهار لا يجيب لمالك حداد"

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص: الأدب الجزائري العالمي باللسان الفرنسي

إعداد الطالب:

عبد العالي بوصباط

إشراف الأستاذ الدكتور:

عبد السلام ضيف

لجنة المناقشة:

1- الأستاذ الدكتور: السعيد خضراوي	جامعة الحاج لخضر-باتنة-	رئيسا.
2- الأستاذ الدكتور: عبد السلام ضيف	جامعة الحاج لخضر-باتنة-	مشرفا ومقررا.
3- الأستاذ الدكتور: متقدم الجابري	جامعة الحاج لخضر-باتنة-	عضوا مناقشا.
4- الأستاذ الدكتور: يوسف الأطرش	جامعة عباس لغرور- خنشلة-	عضوا مناقشا.

السنة الجامعية: 2014 / 2015

باسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالي:

﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان

من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم

علم الإنسان ما لم يعلم﴾

شكر وعرفان

بعد حمد الله وشكره، على فضله وعلى نعمته، أتوجه بخالص تشكراتي إلى كل من كانت له يد العون على إنجاز وإتمام هذا البحث، بدء بأستاذي المشرف عبد السلام ضيف،

الذي تميز معي برحابة الصدر؛ فلم يبخل علي بتوجيهاته، ونصائحه رغم انشغالاته الكبيرة، الإدارية منها والبيداغوجية، إلى كل أساتذة اللغة والأدب العربيين بجامعة الحاج لخضر –باتنة–

الذين نصحوني بآرائهم، وأخص بالذكر هاهنا الأستاذ المحترم الطيب بودربالة، والأستاذ الطيب معمر حجيج، دون أن أنسى الأستاذ المتواضع السعيد خضراوي، والأساتذة محمد منصوري، وعلي منصوري، ويوسف الأطرش الذين كانوا جميعهم على قدر كبير من الطيبة، وحسن التوجيه.....

كما أشكر القائمين على مكتبة بلدية العنصر، وعلى رأسهم الأخ الهادي لكحل، وكذلك الأخت بودردة نادية العاملة بمكتبة جامعة تاسوست – جيجل– والأستاذ والصديق عمر بوكركب من جامعة مولود معمري– تيزي وزو – عرفانا لهم جميعا على المساعدات التي قدموها لي في سبيل تخطي عقبات البحث

أسأل الله العلي القدير أن يجازيهم على كل ما أسدوه لي من إعانة ولو معنوية

فشكرا لهم جميعا

بوصباط عبد العالي

إهداء

إلى أمي العزيزة زهرة التي غرست فيّ حب العلم.

إلى أبي مخلوف الكبير كبر تضحياته في

سبيل تحصيل العلوم.

إلى زوجتي الغالية وسام التي شجعتني على مواصلة الدراسة.

إلى ولدي الحبيبين ملاك ووسيم.

وإلى كل الذين علّموني ما لم أعلم.

وكذلك إلى كل أفراد أسرتي: أخت،

وآخاء، وإلى زوجاتهم وأبنائهم.

إلى كل الزملاء، والأصدقاء

في الدراسة كانوا أم في العمل،

إليهم جميعا أهدي هذا

العمل المتواضع.

بوصباط عبد العالي

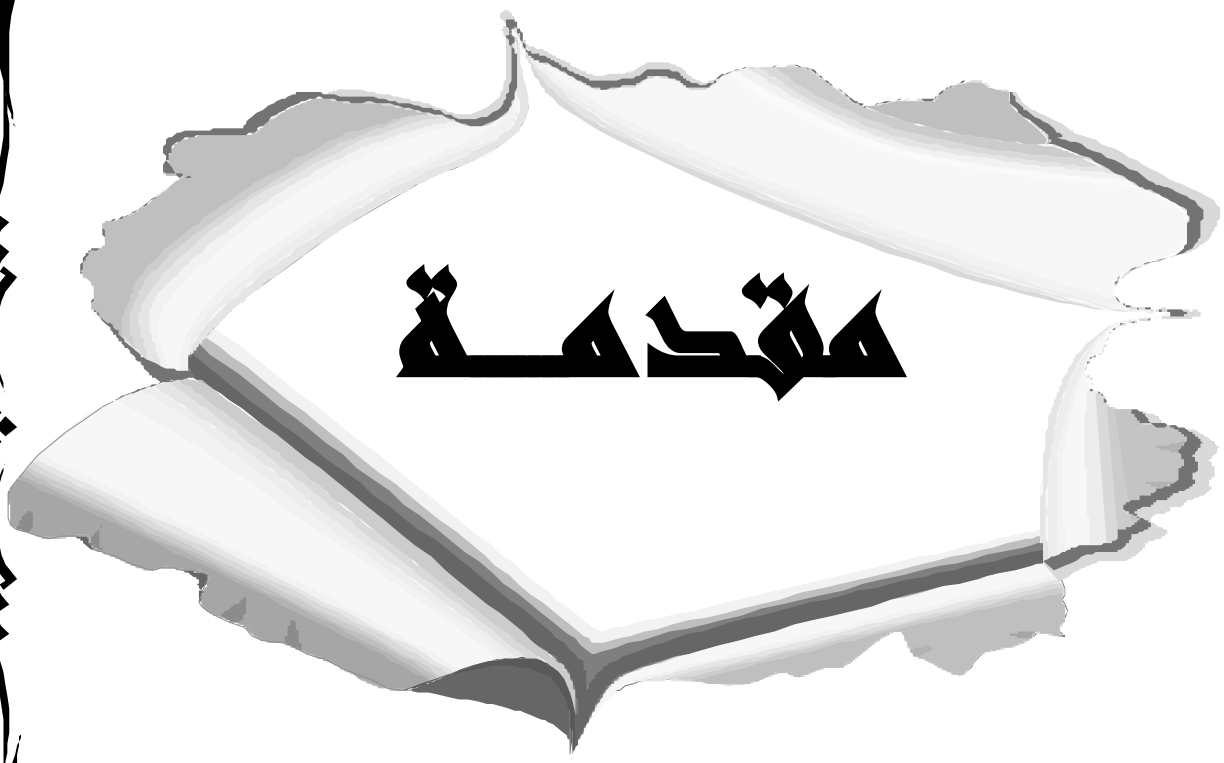

مقدمة

لقد ظلت الجزائر حقبة زمنية طويلة ترزخ تحت نير سلطة الاستعمار الفرنسي الغاشم الذي سلط على شعبها أبشع أنواع العذاب ومارس أفظع أعمال التخريب، وقد شملت هذه الممارسات شتى مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وهذا في محاولة من السلطة الاستعمارية القضاء على كل مقومات الشخصية الوطنية، وطمس معالم الدولة الجزائرية، وبث روح اليأس في نفوس أبنائها الذين ذاقوا مرارة الاستبداد بفعل التقتيل والتجويع والتشريد والتنكيل. وما ساعد فرنسا على تحقيق أهدافها هو الجو العام الذي كانت تعيشه الجزائر وقتذاك، حيث كان الجهل والأمية والوهن والتضعضع السمات التي تطبع المجتمع الجزائري...

في هذا الخضم المتردي، بدأ المثقف الجزائري يشق طريقه نحو رسم صورة أفضل لمستقبله السياسي والاجتماعي فراح يلتمس لنفسه سبل الخلاص من الوضع القاتم المتعفن الذي يعيشه، وبدأ الوعي ينتشر أكثر فأكثر، وخاصة مع بروز الحركة الوطنية وتشكل الأحزاب والجمعيات السياسية التي كان همها الوحيد هو بث روح الوعي في نفوس الجزائريين، ومحاربة الجهل والأمية، ومقاومة الاستدمار الفرنسي بشتى الوسائل لعل أهمها الأدب! الذي لعب دورا كبيرا في المقاومة.

في هذا الإطار ظهر كوكبة من الأدباء الجزائريين الذين تعلموا في المدرسة الفرنسية – مرغمين– لغة غير لغتهم، وحملوا على كواهلهم هموم وأحزان أبناء جلدتهم وعبروا عن آهات وأنات الجزائريين بصدق وإخلاص، من خلال إنتاجاتهم وإصداراتهم الأدبية التي كتبوها بلغة غير لغتهم الأصلية، لأنهم أدركوا أيما إدراك أن مقاومة الاستدمار بواسطة الأدب تعد أصدق تعبير عن الظلم الذي حاق بالوطن وبالشعب، وأخير سلاح للدفاع عن ثقافة الشعب ومعتقداته، وكرامته وحريته.

وهكذا سطع نجم كاتب ياسين برائعته التي دوخت العالم " رواية نجمة"، وبزغت شمس محمد ديب بثلاثية "الدار الكبيرة، الحريق، النول" كما ولد في بلاد القبائل مولودان أخيران إنهما معمري وفرعون.

بالإضافة إلى مالك عقول الوطنيين الجزائريين " مالك حداد" الذي يعد بحق واحدا من المخلصين البررة الذين قاوموا الاستدمار الفرنسي، حيث كان له وعي بقضايا وطنه، ووفاء لأرض أجداده وهذا من خلال أعماله الأدبية التي شحنها بطاقة وطنية ترفض الاحتلال وتشجب كل أنواع الاستغلال على غرار روايته " رصيف الأزهار لا يجيب" والتي اخترتها نموذجا للدراسة، وهي حبلى بشتى صور المقاومة الثقافية وهذا ما سأتناوله في هذا البحث الذي عنونته ب: المقاومة الثقافية في رواية " رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد.

في ضوء ما سبق يمكن أن تتحدد إشكالية الدراسة في التساؤلات التالية:

ما مفهوم الرواية الجزائرية بالفرنسية؟ وما هي ظروف نشأتها؟ وهل تشكل الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية – حقيقة– أداة من أدوات تحقيق المقاومة الثقافية في ظل الملامح الثقافية والسياسية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي لها؟ ثم كيف تجلى ذلك في رواية مالك حداد " رصيف الأزهار لا يجيب"، من خلال بناء الشخصية والحدث والفضاء المكاني خصوصا؟.

سبب اختيار الموضوع:

يعتبر مالك حداد من أبرز الأدباء الجزائريين الذين كتبوا الرواية بالفرنسية، وهي حقيقة يجهلها الكثيرون وحتى المثقفين منهم، ذاع صيته داخل الجزائر وخارجها، وهذا ما دفعني إلى الغور في عمق حياته النضالية المقاومة من خلال روايته"رصيف الأزهار لا يجيب"، التي تعتبر من أصدق الروايات التي تصور حال المواطن الجزائري المتمسك

بثقافته وأصالته، رغم الظروف الحالكة التي يعيشها، كما أن أدب مالك حداد المرتبط بالواقع دفعني للبحث في هذا المجال لما فيه من أبعاد إنسانية، وأخرى وطنية، وقومية...

ودوافعي لاختيار هذا الموضوع لا تنحصر في مجرد الإعجاب بمالك حداد فقط، وإنما هناك دافع الغيرة على الوطن والدين، وعلى العادات والتقاليد والتراث، وكل ما له علاقة بثقافتنا الاجتماعية الأصيلة، وضرورة الحفاظ عليها من الاضمحلال، وهذا ما فعله مالك حداد المناضل الذي عرف بمواقفه الثورية، وتمسكه بهويته رغم الظروف التي عاشها.

كما أن هناك دافعا ذاتيا جذبني إلى أدب مالك حداد ألا وهو إعجابي بهذا الأدب، وبروح صاحبه المرحة،وصدق عاطفته،وحسن نواياه، وكذلك جمال تعبيره وخلو سرده من الزخرفة في المتون والطول في الفصول، ومن كل ما يربك الباحث، ويؤدي به إلى التيه في متاهات يصعب الخروج منها، ومن ثمة صعوبة الوصول ببحثه إلى نتائج واضحة، هذا بالإضافة إلى لغته الشاعرية التي تجعلك تتذوقها وتحس بأنها تعبر عما في داخلك أنت لا عن إحساس الأديب نفسه.

إن أهمية هذا البحث تكمن في كونه همزة وصل بين الماضي والحاضر، ماضي الجزائر وتاريخها، حاضرها ومستقبلها، بحيث أن المقاومة الثقافية تظل إحدى وسائل الذود عن الوطن، والدفاع عن أركانه وثوابته، استخدمها الجزائري البارحة كما اليوم، وذلك من خلال الأعمال الأدبية لأولئك الذين رفعوا راية الأمة ومضوا يشقون بحور الكفاح والنضال، بكل صدق وإخلاص، وعلى رأسهم مالك حداد الذي يعتبر من أبناء الجزائر البررة الذين–وإن لم يسعفهم الحظ في الكتابة بالعربية–فإنهم اتخذوا من الفرنسية غنيمة حرب جابهوا بها العدو في عقر داره، رغم أن الفرنسية كانت تمثل لهم حاجزا بينهم وبين وطنهم أشد وأقوى من حاجز البحر الأبيض المتوسط.وإنهم عاجزون عن أن يعبروا

بالعربية عما يشعرون به بالعربية... إن الفرنسية لمنفاهم (على حد تعبير مالك حداد نفسه).

إن أهمية الموضوع إذن تكمن أولا في أهمية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، الذي يمثل شكلا من أشكال المقاومة الثقافية، اتخذ منه المثقفون الجزائريون وسيلة لإسماع صوت الجزائر إلى العالم من جهة، والدفاع عن ثوابت الأمة ومعتقداتها من جهة أخرى.

وقد تناول الباحثون والكتاب موضوع المقاومة بصفة عامة، والمقاومة الوطنية بصفة خاصة، غير أنه ومن خلال البحث الذي أجريته سواء في مكتبات الجامعات أو في الأنترنت، فإنني لم أجد من تطرق لهذا الموضوع، موضوع المقاومة الثقافية في الرواية الجزائرية باللسان الفرنسي بهذا العنوان.

إلا أن هناك مقالا منشورا في مجلة الآداب والعلوم الاجتماعية، العدد 03، نوفمبر 2005 بكلية الآداب والعلوم الاجتماعية، جامعة فرحات عباس – سطيف – بعنوان " المكون القيمي الراتب في ثقافة المقاومة الجزائرية– الإلياذة– نموذجا لصاحبه أمحمد زغوان، والذي تناول من خلاله موضوع المقاومة في الشعر (الإلياذة)، وهذا ما يجعله مختلفا عن بحثي.

وهناك كتاب من 142 صفحة لصاحبه الدكتور علي غنابزية، بعنوان دراسات في تاريخ المقاومة الثقافية بالجزائر للحفاظ على الهوية – الجزء الأول – يتناول فيه صاحبه ثراء الثقافة الجزائرية، ومساهمتها في المقاومة العظمى للاستدمار الفرنسي، وتصديها للجهل والاستبداد، كما يعرض الكاتب نماذج ثقافية لجهود علماء الوطن وإنتاجهم الأدبي، ووسائلهم الثابتة في الدفاع عن القيم، وتثبيت المبادئ الأصيلة في الشخصية الوطنية.

وهذا الكتاب – وإن تشابه إلى حد كبير في عنوانه مع بحثي – فإنه يختلف عنه من حيث طبيعة الدراسة التي قام بها صاحبه، بحيث أنها تبقى دراسة تاريخية للموضوع لا أدبية.

كما أن هناك ملتقى نظم بورقلة يوم الأربعاء 2013/02/27 حضره ونشطه باحثون وأساتذة جامعيون، تناول مختلف المظاهر الثقافية والاجتماعية التي ميزت مقاومة سكان منطقة الواحات ضد الاستدمار الفرنسي، وهذا بمناسبة إحياء الذكرى الواحدة والخمسين للمظاهرات الشعبية التي شهدتها تلك المنطقة يوم 1962/02/27. وعليه يبدو أن هذا الملتقى قد خص المقاومة الثقافية داخل حيز جغرافي محدود ألا وهو الصحراء، دونما التطرق إلى موضوع المقاومة الثقافية بشكل عام.

بالإضافة إلى مذكرة ماجستير بعنوان "المقاومة الوطنية في المسرح الجزائري" للطالب الأديب أحسن تليلاني بكلية الآداب جامعة قسنطينة، وقد تمحور الموضوع حول المقاومة الوطنية في المسرح الجزائري إبان الثورة التحريرية، وقد طرح جملة من الإشكالات التاريخية بدء بكيفية استعمال المسرح كأداة للمقاومة، وكيف استطاع أن يقوم بدوره في خدمة القضية الجزائرية داخليا وخارجيا. وقد بدا لي جليا أن هذا الطالب ركز في بحثه على المسرح دون الرواية من جهة، كما اهتم بالمقاومة الوطنية بصفة عامة من جهة أخرى، وهو الأمر الذي قام به الطالب إبراهيم لقمان في بحثه الذي وسمه ب "ملامح الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة"، حيث تطرق إلى دور الشعر في المقاومة دون الرواية. في الوقت الذي سأخصص بحثي هذا لتناول المقاومة الثقافية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية بصفة عامة، وفي الرواية بصفة خاصة.

كما عثرت من خلال البحث والتنقيب في مجال الدراسات السابقة في هذا الموضوع على مقالة كتبها منصور عمايرة بعنوان "المقاومة في الأدب الجزائري" واستشهد بشعر محمد العيد وابن باديس، والربيع بوشامة كما استشهد برواية نجمة لكاتب ياسين،

ومسرحية "الأجداد يزدادون ضراوة"، مهملا تماما تأثير الرواية في مجال المقاومة الثقافية. وهذا ما سأركز عليه في بحثي إن شاء الله.

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق الأهداف التالية:

أ- تسليط الضوء على واحد من أبناء الجزائر الوطنيين المخلصين " مالك حداد" الذي أفنى حياته في سبيل خدمة وطنه، والتمسك بهويته، والتعبير عن انتمائه الثقافي والحضاري.

ب- التأكيد على أن الكتابة بالفرنسية كانت نتيجة ظروف سياسية عاشها المثقف الجزائري، وهي لا تمثل انفصاما عن الثقافة القومية – كما يعتقد الكثيرون – بقدر ما هي وسيلة من وسائل إسماع صوت الجزائر إلى فرنسا خصوصا، وإلى العالم أجمع بشكل عام.

ج- إبراز مكانة الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية ودوره كأداة من أدوات المقاومة الثقافية انطلاقا من رواية " رصيف الأزهار لا يجيب".

د- إفادة الطلبة والباحثين بأهمية نقاط البحث التي سأتوصل إليها.

وقد اعتمدت في هذا البحث على أكثر من منهج واحد، رأيتها خادمة لفصوله ومباحثه، كالمنهج الوصفي التحليلي باعتباره أنسب المناهج على الإطلاق في معالجة هكذا مواضيع، وخاصة أثناء تحليل الملامح السياسية والثقافية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، وكذلك خلال دراسة وتحليل تنوع الخطاب الإيديولوجي الجزائري.

كما استخدمت المنهج التاريخي الذي ساعدني كثيرا على تتبع حركة التطور التي عرفتها الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، من نشأتها الأولى مرورا بفترة الثورة التحريرية، حيث عرفت هذه الرواية تطورا في مضمونها، وصولا إلى فترة ما بعد

الاحتلال، وخاصة عند بداية التسعينات من القرن الماضي أين أخذت شكلا مغايرا لما كانت عليه من قبل.

هذا بالإضافة إلى بروز بعض ملامح المنهج السيميائي، خاصة في الفصل التطبيقي، وفي مناقشة رمزية الرواية تحديدا، هذه الرواية التي هي عبارة عن بنيات نصية ذات دلالات عميقة لا يفسر أبعادها سوى منهج السيمياء.

ولإنجاز هذا العمل ارتأيت أن أقسمه إلى ثلاثة فصول، مستهلة بمقدمة، ومختومة بخاتمة هي ثمرة البحث، حيث ضمنتها أهم النتائج التي توصلت إليها من خلال الدراسة.

وقد تضمن الفصل الأول إشكالية الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، حيث تتبعت المسارات التي نهجتها الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي، من نشأتها إلى بداية سنوات التسعينات من القرن الماضي. كما تطرقت إلى تحولات الكتابة في الأدب الجزائري باللسان الفرنسي ، قبل أن أخوض في إشكالية هوية هذا الأدب الذي أثار ضجة كبيرة في هذا الشأن فهناك من يعتبره جزائريا خالصا، وهناك من يرى عكس ذلك.

أما الفصل الثاني فتناولت فيه من خلال مبحثيه قضية المقاومة الثقافية بين الواقع والمتخيل، وباعتبار أن المقاومة الثقافية هي بيت القصيد في هذا البحث، فقد أسهبت في تحليل الواقع الثقافي والسياسي في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي، بعدما قمت بتحديد مفهومي المقاومة، والثقافة ثم المقاومة الثقافية في الجزائر على وجه الخصوص. أما الفصل الثالث فهو عبارة عن فصل تطبيقي خصصته لتحليل رواية " Le quai aux fleurs ne répond plus" وذلك للوقوف على أهم الأحداث والوقائع التي ترسم لنا صور المقاومة الثقافية عند مالك حداد، من خلال الشخصية الرئيسية "خالد بن طوبال".

وككل بحث علمي يفرض علينا مواجهة صعوبات ومشاكل ونحن بصدد إنجازه، فقد واجهتني بعض المشاكل في هذا الصدد، أذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

– صعوبة التعامل مع رواية مكتوبة باللغة الفرنسية بالنظر إلى قلة المراجع المختصة بدراسة هكذا روايات.

– بالإضافة إلى نقص المراجع التي تهتم بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، نظرا لقلة المهتمين به مقارنة بالأدب الجزائري المكتوب بالعربية، وكذلك الأمر بالنسبة للروائي مالك حداد الذي يبقى مغمورا، والكتابات حوله وحول أعماله الأدبية قليلة مقارنة بغيره من أبناء جيله.

ولكن رغم ذلك فإنني تمكنت بفضل الله تعالى وعونه من التغلب على مثل هذه المشاكل، حيث استطعت أن أجمع عددا لابأس به من المراجع لتكون مصدر المادة العلمية التي ساعدتني على إتمام البحث، أذكر منها بالخصوص كتاب "الأدب الجزائري باللسان الفرنسي، نشأته وتطوره وقضاياه" للأستاذ "أحمد منور"، وكذلك "المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر" لعبد العزيز شرف، بالإضافة إلى كتاب الأستاذة "أم الخير جبور" وهو بعنوان "الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية"، دون أن أنسى كتاب "الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر" "لعبد القادر جغلول" و "تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال" لصاحبه "عبد الوهاب بن خليف"، وكذلك " سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر" "لعبد القادر حلوش".

هذا دون أن أنسى المساعدات المادية الأخرى، والتحفيزات المعنوية التي تلقيتها من الأساتذة الأفاضل الذين لم يبخلوا علي بتوجيهاتهم ونصائحهم، أذكر منهم الأستاذ المشرف "عبد السلام ضيف"، والأستاذ محمد منصوري ، وكذلك الأساتذة علي منصوري، ومحمد منصوري، ومعمر حجيج، والطيب بودربالة، ويوسف الأطرش..

الفصل الأول

إشكالية الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

الفصل الأول: إشكالية الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية

مقدمة

المبحث الأول: نشأة الرواية الجزائرية بالفرنسية

المطلب الأول: المرحلة الأولى (1920م إلى 1948م)

المطلب الثاني: المرحلة الثانية (من 1952م إلى الاستقلال)

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة (من منتصف الستينات إلى بداية التسعينات)

المبحث الثاني: تحولات الكتابة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية على مستوى المضامين

المطلب الأول: الأدب الاندماجي

المطلب الثاني: الأدب الثوري الوطني

المطلب الثالث: أدب النزعة الاحتجاجية

المبحث الثالث: هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية

المطلب الأول: القائلون بقويمة الأدب

المطلب الثاني: القائلون بأنه أدب فرنسي

المطلب الثالث: القائلون بأنه أدب بلا هوية

خاتمة

قبل الخوض في إشكالية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، يجدر بنا أن نتطرق إلى ظاهرة الازدواجية اللغوية في الجزائر، والأسباب الحقيقية التي جعلت المجتمع الجزائري عموما، وأدباءه ومثقفيه خصوصا، يستعملون أكثر من لسان، فزيادة على اللسان العربي الذي يتحدثون به في مختلف المجالس الأدبية، والنوادي والمساجد والزوايا وغيرها، وإضافة إلى اللهجات الأخرى كالأمازيغية، والشاوية، والترقية، والميزابية، وغيرها من اللهجات التي تستعمل كوسائل اتصال داخل المجتمع الجزائري، هناك لغة أخرى هي الفرنسية، والتي اقتحمت الساحة الأدبية بالخصوص، وصار الأدباء الجزائريون ممن أسعفهم الحظ في التعلم في المدارس الفرنسية يكتبون بالفرنسية في مختلف إبداعاتهم، وإنتاجاتهم الفكرية، كما هي الحال في الرواية، والأقصوصة، والمسرح، وغيرها من الفنون الأدبية. ولعل هذه الظاهرة – الازدواجية اللغوية – غير مقتصرة على المجتمع الجزائري، حيث عرف أدب الكثير من الشعوب ظاهرة الكتابة بلغة هي ليست اللغة الأصلية« **وهذا هو حال أغلب الأدباء العرب الذين يكتبون إبداعهم باللغة الفرنسية، إن لم يكن حال جميعهم** ». [1]

وإذا أجرينا دراسة إحصائية لعدد الكتاب والأدباء الجزائريين الذين اختاروا اللسان الفرنسي للتعبير عن مشاعرهم، وهمومهم، سنجد عددهم كبيرا جدا مقارنة بأولئك الذين كتبوا بالعربية.

وهنا لابد أن نشير إلى الأسباب الكثيرة، سواء أكانت سياسية، أم اجتماعية، أم ثقافية، والتي أدت إلى هذه الازدواجية اللغوية. فمن المعروف أن الجزائر ونظرا لموقعها الجغرافي الهام، وكذلك ما تتمتع به من مزايا طبيعية، واقتصادية، كانت مطمع الدول الاستعمارية الكبرى، التي تكالبت عليها طمعا في خيراتها منذ قرون، ويبقى الاستعمار

[1] محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب باللغة الفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1966، ص 11.

الفرنسي الغاشم أبشع قوة استدمارية استوطنت الجزائر، فعملت على نهب ثرواتها الطبيعية، وتحريف هويتها الثقافية. وفي سبيل تحقيق ذلك شرعت في طمس معالم الشخصية الوطنية من دين، ولغة، وعادات، وتقاليد، كما سخرت كل إمكاناتها في سبيل فرنسة المجتمع الجزائري، وذلك بإحلال الفرنسية مكان العربية « **وهكذا أمكن للاستعمار أن يخلق موظفين يساعدونه في توطيد نفوذه، ومثقفين يؤمنون بالفكر الغربي**».[1]

كما عملت على تكوين جيل (نخبة) من الجزائريين متشبع بروح الثقافة الفرنسية، متمكن من لغة المستعمر، وهذا ما تحقق لها فعلا؛ حيث شهدت نهاية القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين بروز جيل من الكتاب الجزائريين، يكتبون بالفرنسية، ويتحدثون بالفرنسية « **وقد ظل هؤلاء الكتاب في معظمهم معجبين كل الإعجاب بالحضارة الفرنسية بوجه خاص، والحضارة الغربية بوجه عام، جاهلين بالتاريخ العربي غير ملمين بمعالم الحضارة الإسلامية، إذ أنى لهم أن يدركوا شيئا من ذلك وهم محرمون من الإلمام الكافي بلغتهم التي بواسطتها يطلعون على التراث العربي**».[2]

هذا إلى جانب عامل آخر، وهو تهلهل المجتمع الجزائري ثقافيا، نتيجة عدم تمكن اللغة العربية بين أوساط الجزائريين، نظرا لأسباب تاريخية موضوعية، ما جعل هذا المجتمع بعيدا تماما عن الثقافة العربية، وما جعل اللغة العربية شبه غريبة في هذا المجتمع الذي يدين بدين الإسلام، ويضع العربية في المقام الأول مقارنة باللغات الأخرى. كل هذه العوامل مجتمعة أدت بالأدباء الجزائريين « **إلى استخدام الأداة الأجنبية لملء الفراغ، فساهموا بطريقة غير مباشرة في تطور الفن الروائي نسبيا**».[3]

---

[1] محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983، ص 262.

[2] عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي في الجزائر (1925، 1954)، ش. و. ن . ت، الجزائر ط2، 1983، ص 26.

[3] مبروك قادة: إشكالية الانتماء القومي للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، مقال منشور بمجلة " إنسانيات".

المبحث الأول: نشأة الرواية الجزائرية بالفرنسية.

المطلب الأول: المرحلة الأولى (1920م إلى 1948م).

لم يولد الأدب الجزائري ذو التعبير الفرنسي مع مولود فرعون ومولود معمري، ولا مع كاتب ياسين، ولا مع مالك حداد، ولا حتى مع محمد ديب، وإنما جذوره الأولى تعود إلى سنة 1891، حيث كانت المحاولة الأولى، وهي عبارة عن أقصوصة، للقاص محمد بن رحال[1] M hamed ben rahhal 1856- 1928تحت عنوان «**انتقام الشيخ**" **La vengeance du cheik** » [2]، وقد كانت هذه الأقصوصة عبارة عن محاولة متواضعة لواحد من الجزائريين، الذين حاولوا الاهتمام بوضعية الشعب الجزائري، إزاء ما يعيشه من ظروف اجتماعية قاهرة، وهي « **مستقاة – حسب ما يذكر ديجو – من التقاليد الاجتماعية الجزائرية** »[3] ولكن نظرا لأهميتها « **فقد نشرت هذه القصة في المجلة الجزائرية التونسية الأدبية والفنية في العدد الثالث يوم (26 سبتمبر – 3 أكتوبر 1981** »[4]، وظل الوضع على حاله وظلت الجزائر تعيش حالة من الركود والخمول الثقافي المبرر، إلى أن جاءت سنة 1912 مع أحمد بوري، الذي كانت له

---

[1] وهو أحد المثقفين الوهرانيين المعروفين، الذين اشتهروا بنضالهم الطويل من أجل الحفاظ على الهوية الجزائرية، وتعليم اللغة العربية لأبناء الجزائريين. نقلا من: أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007، ص 87.

[2] أم الخير جبور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية دراسة سوسيونقدية، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2013، ص 36.

[3] أحمد منور: المرجع السابق، ص نفسها.

[4] أم الخير جبور: المرجع السابق، ص نفسها.

محاولة جديرة بالاهتمام، مع سلسلة من القصص المتواضعة التي يمكن أن تشكل مجتمعة رواية قصيرة، رغم أنها لم تجمع في كتاب . وهي بعنوان "مسلمون ومسيحيون".

ولكن تبقى كل هذه المحاولات مجرد البذور الأولى لنشأة هذا الأدب الذي سيترعرع فيما بعد، وسيصل إلى حد العالمية، حيث جاءت سنة 1920 التي يعتبرها "جان ديجو" « **المؤرخ الأول للأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية كانطلاقة حقيقية لهذا الأدب الناشئ، ويعد مؤلف القايد بن الشريف الموسوم بـ"احمد بن مصطفى القومي" بداية تلك الانطلاقة**»[1] حيث يعد جميع المؤرخين لهذا الأدب هذه الرواية كأول عمل أدبي يصدر عن جزائري باللغة الفرنسية، ثم تليها روايات أخرى بعد ذلك، فبالإضافة إلى المجموعة الشعرية التي أصدرها سالم القبي والتي عنونها بـ " أنداء مشرقية" هناك ثلاث روايات أخرى صدرت قبل سنة 1930م وهي "زهرة المنجمي " Zohra la femme du mineur "لعبد القادر حاج حمو" سنة 1925م ورواية "مأمون بدايات" مثل أعلى Mamoun lébauche d'un idéol لشكري خوجة (1928) بالإضافة إلى رواية " العلج أسير بربروسياEuldj captif des el– barbaresques لنفس الكاتب سنة 1929م.

بعد ذلك أي في الفترة الممتدة بين 1929– 1948م شهدنا فتورا في الإنتاج الروائي الجزائري باللسان الفرنسي، إذ لم نسجل إلا بعض الروايات القليلة« **التي لا تتعدى سبع روايات في مجملها مثل رواية " مريم بين النخيل" 1934م لمحمد ولد الشيخ، و" بولنوار فتى جزائري 1941م لرابح زناني" و"ليلى فتاة جزائرية" 1948م لجميلة دباش**»[2] هذا وإن كانت أغلب هذه الأعمال قد أثارت مسالة الهوية، والاندماج* فإن سنة

---

[1] أحمد منور: المرجع السابق، ص 89.

[2] أحمد منور: المرجع نفسه، ص 98.

* كما سأوضح هذه النقطة فيما بعد في الصفحة29.

1948م قد شهدت نوعا من التحول في مسار الكتابة بالفرنسية وذلك مع مالك بن نبي في روايته "لبيك"، وعلي المحامي في روايته «**إدريس، حيث صورت الأولى شروط النهضة لدى الفرد الجزائري المسلم، كما صورت الثانية «وقائع ثورة الريف بالمغرب الأقصى سنة 1923م بقيادة عبد الكريم الخطابي** ».[1]

المطلب الثاني: المرحلة الثانية (من 1952م إلى الاستقلال).

إن هذا التحول الذي أشرنا إليه سابقا لم يطرأ بشكل واضح سواء على مستوى المضامين، أم على المستوى الكتابي للرواية ذات التعبير الفرنسي إلا بحلول سنة 1952م، ببروز كوكبة من الأدباء الجزائريين، الذين بدأوا يتأكدون أكثر من أي وقت مضى بأن الوضع الذي صارت تعيشه الجزائر مقلق حقا، وأنه صار لا مناص للجزائريين أن يتلمسوا طرق الخلاص من قيود المستعمر الغاشم، الذي عمل على تفكيك أوصال المجتمع الجزائري بداعي تحضيره وإخراجه من الظلمات إلى النور، وأن المزاعم التي كانت تظهرها فرنسا للجزائريين ما هي إلا مجرد أوهام، الغرض منها تغليط الجزائريين، وإلهاؤهم عن الدفاع عن القضية الجزائرية المصيرية. وقد تبلور هذا النضج لدى كثير من الروائيين، وخاصة بعد الحرب العالمية الثانية، هذه الحرب التي كشفت عن النوايا الحقيقية للدولة الفرنسية. وهذا ما جعل مولود معمري يقول: « **خلال الحرب العالمية الثانية حدثت أشياء كثيرة شاركنا فيها نحن الجزائريين، فشعرنا على إثرها بتهيب وابتهاج أن خروجنا من المأزق ممكن، فخرجنا من ذلك المأزق بالكتابة قبل أن نخرج منه في الواقع** ». [2]

---

[1] سامية إدريس: الرواية الجزائرية الحديثة بين الهوية الثقافية والهوية السردية، المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال اليوم الدراسي (الرواية بين صفتي المتوسط)، الجزائر، 2011، ص 117.

[2] أم الخير جبور: المرجع السابق، ص 41.

نعم لقد تجسد هذا النضج في أغلب الأعمال الروائية التي صدرت ابتداء من بداية الخمسينات انطلاقا من رواية "ابن الفقير"Le fils du pauvre لمولود معمري سنة 1950 « **والتي يصنفها بعض الدارسين ضمن الرواية الاثنوغرافية* والبعض الآخر ضمن الأدب البيوغرافي، وهي تصور حالة الفقر والبؤس في القرى القبائلية (...) وتقدم صورا عن نمط المعيشة وعن العادات والتقاليد في تلك المنطقة**»[1]، ثم رواية الدار الكبيرة لمحمد ديب سنة 1952م. وهكذا توالت الأعمال الأدبية الناضجة نضج أصحابها "كالأرض والدم"La terre et le sang 1953م، و"الدروب الوعرة " Les chemins qui montent1957م "لمولود فرعون"، و"الحريق"L'incendie 1954م و"مهنة الحياكة" le métier a tisser"لمحمد ديب" ليشكل بذلك ثلاثية له: ثلاثية أصبح الجيل بعد الجيل يرويها، ثم رواية "صيف إفريقي"été africain 1959، ورواية "من يذكر البحر" qui se souvient de la mer 1962، وهما لمحمد ديب نفسه، « **ولمولود معمري روايات الربوة المنسية" La colline oublier 1952، نوم العادل Le sommeil du juste 1955م، ورواية Le grain de la meute 1956 لمالك واري، نجمة Nedjma 1956م لكاتب ياسين، وروايات مالك حداد التي نشرت بين 1958م – 1961م الانطباع الأخير La dernière impression ، سأهبك غزالة Je t'offrirai une gazelle ، التلميذ والدروس L'élève et la leçons ، ورصيف الأزهار لا يجيب Le quai au fleurs ne répond pas ، ورواية آسيا**

* تعني "الأنثوغرافيا" الدراسة الوصفية لأسلوب الحياة، ومجموعة التقاليد والعادات والقيم، والأدوات والفنون، والمأثورات الشعبية لدى جماعة معينة، أو مجتمع معين خلال فترة زمنية محددة. نقلا من: www. ejtemay. Com/ showthread. php

[1] سامية إدريس: المرجع السابق، ص نفسها.

جبار أطفال العالم الجديد Les enfants du nouveau monde 1962م ورواية جمال Djamel 1967 لهنري كريا وغيرهم ».[1]

وما تجدر الإشارة إليه أن جل أحداث هذه الأعمال مستقاة من الثورة الجزائرية أو من الوقائع الحزينة التي نجمت عن المجازر التي ارتكبتها فرنسا في حق الجزائريين وقد استمر الوضع على حاله بعد الاستقلال، حيث نهج الأدباء في إخراج أعمالهم ذلك النهج الذي سلكوه خلال الثورة حيث اتخذت لها (الثورة) « **كإطار عام أحداث ووقائع الثورة المسلحة، من تصوير لعمليات المقاومة الفدائية في المدن مثل ما نجده في رواية "أطفال العالم الجديد"1962 لآسيا جبار»** [2] وإلحاق الخراب والدمار بالقرى والمدارس خاصة في الأرياف، وهذا ما نجده في الأفيون والعصا 1965 لمولود معمري.

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة (من منتصف الستينات إلى بداية التسعينات).

أما بعد منتصف الستينات فظهر ما يسمى بالأدب الاحتجاجي، وقد ظهر جله في فرنسا على غرار رقصة الملك 1968م وإله أرض البربر وهي لمحمد ديب، وكذلك « **رواية مراد بوربون المؤذن 1968، و "التطليق" 1969م، و"ضربة شمس" 1972م لرشيد بوجدرة، و"موت صالح باي" 1980م لنبيل فارس»**[3]، كما استمرت النبرة الاحتجاجية التي تكشف عنها الأعمال الروائية تلك حتى نهاية السبعينات وبداية الثمانينات. و نجد ذلك في « **روايات رشيد ميموني خاصة، مثل رواية "النهر المحول 1982م، التي يشير عنوانها إلى المضمون الذي عبرت عنه الرواية وهو تحول الثورة على يد العسكر عن مسارها النضالي ذي الطابع الشعبي وعن أهدافها الاجتماعية**

---

[1] ينظر المرجع السابق، ص 118.

[2] أحمد منور: المرجع السابق، ص 111.

[3] المرجع نفسه، ص 121.

الطموحة، و"طومبيزا" 1984م التي (...) تنتقد الأوضاع الاجتماعية بحدة أقوى»[1] هذا دون أن ننسى روايات الطاهر جاووت التي تشبه إلى حد بعيد روايات رشيد ميموني في مضمونها، وفي مدى معاناة الرواية من مشكلة الاغتراب الثقافي.*

وقد سار أصحاب هذا الاتجاه – النزعة الاحتجاجية– على هذا الشكل في أعمالهم الروائية إلى غاية نهاية الثمانينات أي بعد أحداث 8 أكتوبر 1988م، ولعل أبرز الروايات التي ظهرت في هذه الفترة رواية "شرف القبيلة" سنة 1989 لرشيد ميموني، والتي ينتقد فيها مسؤولي وإطارات ومناضلي الحزب الواحد.**

لكن رغم هذا التوجه الذي كان يوجه انتقادات لاذعة للسلطة الحاكمة إلا أنه ثمة اتجاه ثان سار معه جنبا إلى جنب وإن في خط مواز له، مساند للنظام الحاكم.

هذا الاتجاه الذي نحا منحى المهادنة مع السلطة إذ راح يطرق موضوعات قديمة، ويصور « **أحداث الثورة التحريرية التي سبق أن وقفنا عندها في بعض الروايات»**[2]. ما تجدر الإشارة إليه أن أصحاب هذه النزعة هم أدباء مغمورون، وكأني بهم يحاولون أن يجدوا لأنفسهم مكانة بين مصاف الكبار، على غرار عز الدين بونمور في "الأطلس يحترق" 1987م، و"المغارة المتفجرة" 1979م لآمنة مشاكرة، و"التمزق" 1980م، و"الامتحان الأخير" 1983م لمحمد شايب.

---

(1) المرجع نفسه، ص نفسها.

* الاغتراب الثقافي ظاهرة إنسانية وهي الشعور بالاغتراب نفسيا واجتماعيا ووجوديا ، وهي تؤثر سلبا على توافق الفرد مع محيطه نظرا لانفصال الذات عن الفرد والمجتمع، ومن ثمة انفصال وحدة بشرية عن حضارتها وثقافتها التي ترعرعت فيها. نقلا من: سلاطنية بلقاسم ونوي إيمان: الاغتراب الثقافي عند الطلبة الجامعيين دراسة ميدانية على عينة من طلبة القطب الجامعي شتمة (بسكرة)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 11 جوان، 2013، ص 19

** ينظر: أحمد منور: المرجع السابق، ص 122.

(2) المرجع نفسه، ص 123.

ومع تفجر الوضع الاجتماعي والسياسي في الجزائر في بداية التسعينات وبداية نشاط الأحزاب السياسية التي تمخضت عن التعددية الحزبية التي سمحت بها السلطة، وصعود المد الإسلامي« **برزت أعمال روائية تنتقد هذا المد، وتعتبره خطرا سياسيا واجتماعيا يهدد الديمقراطية، والحريات العامة، وأبرز روايات هذه الفترة "اللعنة" لرشيد ميموني (1993م».**[1]

[1] سليم بتقة: الرواية الجزائرية، سرد الهوية ورهانات الكتابة، مجلة الروائي www.Alrowaee.com، 2010/07/28.

المبحث الثاني: تحولات الكتابة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية على مستوى المضامين.

المطلب الأول: الأدب الاندماجي.

لقد كانت البدايات الأولى للأدب الجزائري باللسان الفرنسي عبارة عن محاولات لمجموعة من الأدباء الذين أطلق عليهم اسم «"المتطورين، أو النخبة Les Evolues"* **والذين اقتنعوا أيما اقتناع بأن فرنسا قد نجحت في مهمتها الحضارية في الجزائر، إذ كان لابد من إظهار شيء ما أمام الرأي العام العالمي والفرنسي نفسه، يبرر استمرار احتلال البلد»**[1]، وكأني بهم يريدون أن يثبتوا بأن فرنسا أرادت أن تخلص الجزائريين من الجهل والتخلف، لذا جاءت أغلب أعمالهم تدعو إلى المزاوجة بين الجزائريين والفرنسيين، وتصور العلاقة بين هؤلاء وأولئك بأنها علاقة حميمة تبعث على التآلف والانسجام، وقد تجلى ذلك في عدة أعمال على غرار أعمال عبد القادر حاج حمو وخاصة في رواية " زهرة امرأة المنجمي" وكذلك رواية " مريم بين النخيل "لمحمد ولد الشيخ هذه الرواية التي صورت بوضوح كيف أرادت تلك النخبة التي تمكنت فرنسا من استمالتها من إظهار أن المرأة الجزائرية يمكن أن تتزوج من الفرنسي، كما أن الرجل الجزائري كذلك يستطيع أن يتزوج الفرنسية وأن يتعايش معها دونما حرج، هذا بالإضافة إلى تناول موضوع الخمرة وما فعلته هذه الأخيرة بالجزائريين الذين يعملون جنبا إلى جنب مع الفرنسيين إلا أنهم غير متساوين معهم في الحقوق، كما أن هذه الأعمال كانت في مجملها تمجد فرنسا ولا

---

* يقصد بجماعة النخبة (L'elite) أو المثقفين (intellectuels) أو المتطورين (Evolués) وهي أسماء رافقت كلمة النخبة، من تعلموا في المدارس الفرنسية وتأثروا بالثقافة الأوروبية، وانبهروا بمظاهرها وتقاليدها، واقتنعوا بعظمة فرنسا وقوتها، واعتبروها صاحبة الحق الشرعي في الجزائر. نقلا من: عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 251.

[1] سامية إدريس: المرجع السابق، ص 115.

تنظر إليها على أساس أنها دولة استعمارية بقدر ما تعتبرها دولة لها الفضل في تحضير الجزائريين. لهذا « **فإنهم كانوا يشيدون صراحة وبلا تحفظ بفضل الاستعمار على البلد، ويظهرون إعجابهم بالثقافة والحضارة الفرنسيتين** »[1] ونلمس ذلك في أعمال أحمد بوري " مسلمون ومسيحيون 1912" بالخصوص. وكذلك عند سالم القبي " أنداء مشرقية"....

وقد امتد هذا الطرح، وهذا التوجه في الكتابة إلى غاية سنة 1948م أو 1950م تحديدا والذي يمكن أن نطلق على هذه المرحلة بمرحلة المثاقفة والتقليد، حيث كان خلال هذه المرحلة الكتاب الجزائريون يظهرون نوعا من التسامح والتآخي والتعايش مع نظرائهم الفرنسيين، كما « **كان المؤلفون الجزائريون يريدون أن يبرهنوا للمستعمر أنهم تلاميذ نجباء ومقتدرون** »[2]، وهذا ما يدعو إلى العجب حقا، فكيف بأبناء الجزائر الذين يعتبرون من خيرة أبناء الأمة، والذين كان عليهم أن يكونوا لسان حال هذه الأمة المضطهدة المنزوعة الشخصية، كان عليهم أن يفضحوا فرنسا وأن يظهروا للعالم مدى فظاعة وبشاعة الاستعمار الغاشم الذي قضى على كل مقومات الشخصية العربية الإسلامية، ومسخ كل ما له علاقة بالثقافة الشرقية، إلا أنهم – ورغم ذلك – اعتبروا فرنسا صديقة يمكن الانفتاح عليها، كما يمكن أن تندمج معها. لذلك أرى أن هذا خطأ تاريخي لا يغتفر لهذه النخبة التي هي في الحقيقة نتائج المدرسة الفرنسية، « **ممن كانت أحوالهم ميسرة**».[3]

---

[1] أحمد منور: المرجع السابق، ص 95.

[2] Jean Déjeux : situation de la litérature maghrébine de langue française, éd office des publication, univairsitaires, Alger, 1982, p 29.

[3] أحمد منور: المرجع السابق، ص 95.

كما لا يغتفر خطا رابح زناني صاحب رواية " بولنوار الفتى الجزائري" إذ يدعي« **أن الأفضال كلها المادية والمعنوية ترجع لفرنسا (...) وأن من حظ كل الجزائريين أن تكون الدولة الأكبر والأكثر حضارة في العالم هي المعلمة، فمعها تمكن الجزائري من أن يخطو خطوات عملاقة»!**[1] إنني لأرى بأن الجزائر خطت خطوات عملاقة فعلا ولكنها كانت خطوات إلى الخلف... على أية حال، يبقى هذا مجرد وجهة نظر معينة قد تؤكدها تلك الامتيازات التي منحت لبعض الجزائريين من طرف الإدارة الاستعمارية، كحق التعلم في المدارس الفرنسية.

لذلك لم تكن أغلب الكتابات في تلك الفترة مناهضة للاستعمار، وهذا ما ذهب إليه الأستاذ يوسف الأطرش، حيث يقول في هذه القضية: « **لقد كان كتاب مرحلة ما قبل الخمسينات يكتبون بالفرنسية إرضاء لفرنسا، وللفرنسية، وليس للتعبير عن واقعهم، وواقع شعبهم المضطهد** »، [2] بل هناك من ذهب إلى أبعد من ذلك، حيث أن "فرحات عباس"*، باعتباره من كبار الزعماء السياسيين الجزائريين الداعين إلى فكرة الاندماج في ذلك الوقت، راح ينفي وجود الأمة الجزائرية مطلقا، وهذا من خلال أغرب تصريحاته– في اعتقادي– التي يقول فيها: « **لقد سألت الأحياء والأموات، وبحثت في المقابر، وتصفحت التاريخ، وراجعت القرآن، ولم أر هناك مانعا يمنع مسلما من الاندماج في أمة غير مسلمة...ولن أموت من أجل الأمة الجزائرية، لأنها غير موجودة».**[3]

---

[1] أم الخير جبور: المرجع السابق، ص 37.

[2] يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2004، ص 41.

*فرحات عباس من مواليد 1899 بدوار الشحنة، ولاية جيجل، رجل دولة وزعيم سياسي، مؤسس الاتحاد الديمقراطي للبيان الجزائري، أول رئيس للحكومة الجزائرية المؤقتة من 1958 إلى 1961، تم انتخابه بعد الاستقلال رئيسا للمجلس الوطني التشريعي، توفي في 23 ديسمبر 1985، ينظر ويكيبديا.

[3] عبد الوهاب بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 2009، ص 147.

ولكن بصرف النظر عن القراءات الدلالية لهذه المقولة، والتي يحاول أنصار فرحات عباس من خلالها تبرير موقفه هذا الذي ينفي فيه وجود الأمة الجزائرية، فإنني أرى أنه مبالغ في هذا الاعتقاد؛ ذلك أنه لو بحث في المقابر حقا، لوقف على حقيقة مفادها أن المقابر الجزائرية التي غصت بها جثامين الضحايا الجزائريين تخلو من وجود أي فرنسي مدفون بها، لأن الجزائريين يرفضون ذلك.

ولعل هذا ما يدعو إلى استحالة اندماج الجزائريين في الأمة الفرنسية، كما أنه لو تصفح القرآن فعلا لاصطدم بحقيقة الآية التي يقول فيها الله سبحانه وتعالى: ((لكم دينكم ولي دين)) [1]، ففكرة الاندماج مستحيلة إذن على الأقل في نظر الجزائري البسيط الذي ينظر إلى الأشياء نظرة بسيطة، ويحكم عليها من خلال الأحداث التي يعيشها، والوقائع التاريخية التي يطالعها، والتي تخبره عن الأمة الجزائرية الموجودة فعلا، تلك الأمة التي واجهت الاستعمار، ورفعت شعار الممانعة من البداية، وقادها رجال مقاومون من أمثال الأمير عبد القادر، والمقراني والحداد...وقبلهم، وبعدهم كثيرون لا يسع المجال لذكرهم. كما مات من أجل هذه الأمة رجال آخرون كأحمد زبانا، وديدوش مراد، وابن بولعيد، وابن مهيدي... في الوقت الذي رفض فيه فرحات عباس أن يموت !

ومع حلول سنة 1948 بدأت التساؤلات تطرح حول إمكانية اندماج الجزائريين مع الفرنسيين، هذه الفكرة التي نادى بها عدد غير قليل من الجزائريين، لذلك سميت هذه المرحلة بمرحلة التحول في الكتابة بالنسبة للنخبة الجزائرية، وخاصة مع رواية "إدريس"

[1] القرآن الكريم، الآية 06، سورة الكافرون.

لعلي الحمامي* هذا الرجل الذي « **يمثل الشتات الجزائري الذي رفض العيش تحت نير الاستعمار الفرنسي** »[1]، إذ عمل في روايته هذه على تنوير الرأي العام بالأوضاع الاجتماعية والسياسية والثقافية التي عانى منها المجتمع الجزائري طوال فترة الاحتلال، ولهذا تعتبر رواية "إدريس" بداية «**بروز الوطنية المغربية الحديثة**»[2]، بالإضافة إلى رواية "لبيك" لمالك بن نبي 1948م هذا الأخير الذي – وإن سار على منوال سابقيه في تناول موضوع الخمرة – فإنه قدم الحلول التي يراها تكمن في التوبة والاستغفار والرجوع إلى المبادئ الصحيحة في الدين الإسلامي، ولهذا جاءت روايته بعنوان "لبيك".

المطلب الثاني: الأدب الثوري الوطني.

تلي هذه المرحلة مرحلة حاسمة في مسار الأدب الجزائري باللسان الفرنسي وتبدأ مع حلول سنة 1950م، أي مع صدور رواية "ابن الفقير" لمولود فرعون وتعتبر – بحق – أهم مرحلة، وهي مرحلة تطور وانتعاش هذا الأدب، الذي عرف تحولا وتطورا على مستوى المضامين والموضوعات، التي تناولها الأدباء، الذين «**برزت لديهم الروح الوطنية، وقد صوروا في رواياتهم الإنسان الجزائري في معاناته وتطلعاته بكل أصالة** »[3] كما عالجوا واقع وهموم الجزائريين من قهر وظلم وطغيان مسلط عليهم من طرف

---

* ولد سنة 1902 في تيارت وأصله من المنطقة الجبلية (عين الحمام)، لما بلغ سن 20 من العمر استقر في الإسكندرية مع أهله بعد رحلة إلى الحج شارك بالنضال المعادي للاستعمار لاستقلال الجزائر والمغرب من الخارج، هو مناضل سياسي قبل أن يكون كاتبا. التقى سنة 1923 في باريس مع الأمير خالد، أرسله الأمير إلى الاتحاد السوفياتي، ليلتقي هناك ببعض الزعماء المناهضين للاستعمار على غرار هوشي منه.ينظر. عبد القادر جغلول: الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة سليم قسطون، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، ط1، 1984.

[1] المرجع نفسه: ص 226.

[2] المرجع نفسه، ص 229.

[3] سامية إدريس، المرجع السابق، ص 117.

الاستعمار الفرنسي، وهذا ما تجلى في أعمال محمد ديب خاصة في "الدار الكبيرة" 1952م، حيث «**بروز الوعي بالهوية الجزائرية والروح الوطنية ورفض الاستعمار**»[1] الذي عبث بالجزائريين المستضعفين في دار سبيطار كما عبث بهم في بني بوبلان* وغيره من الأرياف الجزائرية، ما جعل الوعي يبث في شخصية حميد سراج، وأمثاله من الشجعان... هذا ما صورته الأعمال الروائية في هذه الفترة العسيرة من حياة الجزائريين، والتي تزامنت مع اندلاع الثورة التحريرية الكبرى عام 1954م هذه الأعمال التي نذكر منها الحريق 1954م، ومهنة الحياكة 1957م، لمحمد ديب، والربوة المنسية 1952م لمولود معمري، والأرض والدم 1953م لمولود فرعون، ونجمة 1952م، لكاتب ياسين... كلها أعمال تصور الثورة وأبطالها، كما تصور فرنسا ووحشيتها.

ما تجدر الإشارة إليه أن الأدباء في هذه الفترة عاشوا تململا واضحا على مستوى الفكر والوعي؛ في خضم محاولة إثبات الذات ومنازعة الاستعمار بالوسائل المتاحة والمشروعة، بل، بلغته التي اعتبرت غنيمة حرب افتكها الجزائريون منه بالقوة، وهذا ما شكل «**أزمة الوعي لدى المثقف الجزائري الذي يتعلم في المدرسة الفرنسية فتبهره الثقافة الغربية بمبادئها وشعاراتها، وما يجعله يزدري ثقافته الخاصة لكنه سرعان ما يكتشف عنصرية هذه الثقافة أثناء الاحتكاك المباشر بها (...) ومن هنا يظهر زمن الوعي الذي يؤدي حتما إلى مرحلة البحث عن الذات الجزائرية**»[2].

لتأتي مرحلة أخرى وهي مرحلة الاستقلال ليبرز فيها مولود فرعون برائعته "الأفيون والعصا" 1956م، وآسيا جبار "أطفال العالم الجديد" 1963م، ويمكن اعتبار هذا الأدب أدبا مقاوما؛ حيث صور الأعمال الفدائية للجزائريين إبان الثورة في أسمى صور التضحية

---

[1] المرجع نفسه، ص 118.

* بني بوبلان هو أحد الجبال بضواحي مدينة تلمسان.

[2] المرجع نفسه، ص 119.

والجهاد. كما صور وحشية ولاإنسانية فرنسا المتجبرة، وبشاعة أعمالها في الجزائر خلال الثورة التحريرية، وردود أفعال الجزائريين الشجعان الذين قاوموا ببسالة لامتناهية. ولهذا فإن «**معظم الأعمال الروائية التي ظهرت بعد الاستقلال وحتى نهاية سنوات التسعينات تقريبا تنتمي إلى هذا الاتجاه (...) المنحاز إلى الثورة** ».[1]

المطلب الثالث: أدب النزعة الاحتجاجية.

وفي منتصف الستينات، بدأت تلوح في أفق الساحة الأدبية الجزائرية، وخاصة باللسان الفرنسي معالم كتابة جديدة، حاملة معها شعارات الاحتجاج، إنه أدب النزعة الاحتجاجية، وذلك رفضا للأوضاع القائمة في الجزائر، وخاصة الأوضاع السياسية والاجتماعية السيئة التي يعيشها الجزائريون، من جراء الممارسات التعسفية التي مارستها السلطة الحاكمة، في ظل الحزب الواحد، وما نتج عن ذلك من الجهوية والمحسوبية، واستشراء الرشوة والفساد...إلخ، وهنا برز مرة أخرى محمد ديب ب"رقصة الملك 1968م" و"إله أرض البربر1970م" بالإضافة إلى رشيد ميموني في روايته "النهر المحول 1982م"،وكذلك رواية شرف القبيلة 1989م « **التي رصد فيها السلوكات التي كان يقوم بها مسؤولو وإطارات ومناضلو الحزب الواحد*** ».[2]

ومع مجيء سنة 1991م، وهو عهد التعددية الحزبية؛ حيث انتشر المد الإسلامي، مع حزب الجبهة الإسلامية للإنقاذ، ظهر أدب جديد ينتقد ما آلت إليه الجزائر من أوضاع سياسية، وما نتج عن ذلك من انفلاتات أمنية، نتيجة انتشار هذا المد من جهة، وتوقيف المسار الانتخابي من جهة أخرى. ولعل أشهر الأعمال الأدبية تصويرا

---

[1] أحمد منور، المرجع السابق، ص 111.

* وهو حزب جبهة التحرير الوطني الذي حكم البلاد والعباد بقبضة من حديد، وهو الحزب الوحيد الذي مارس السياسة بعد الاستقلال دون غيره.

[2] أحمد منور، المرجع السابق، ص 122.

لهذا الواقع المرير أعمال ياسمينة خضرا** وخاصة في رواية "معرض الأوباش" 1993م، و"الجنون بالمبضع" 1990م و" بم تحلم الذئاب" 1999م، بالإضافة إلى رشيد ميموني في رواية "اللعنة" 1993.

بقي أن نشير في الأخير، أن معظم هذه الروايات نشر في فرنسا بسبب إقامة هؤلاء الأدباء بها من جهة، ولئلا يقع أصحابها في مواجهة حقيقية مع السلطة الحاكمة من جهة أخرى.

** ولد ياسمينة خضرا واسمه الحقيقي محمد مولسهول عام 1955 في الصحراء الجزائرية وهو يتمتع اليوم بشهرة عالمية بفضل رواياته، لاسيما "بم تحلم الذئاب" و "خداع الكلمات" و "القريبة كاف" التي ترجمت إلى 22 لغة. ينظر ياسمينة خضرا: الصدمة، ترجمة نهلة بيضون، 2005.
Ed, julliard, paris, 2005 ، ص الغلاف الخارجي.

المبحث الثالث: هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

إن موطن الخلاف الذي بقي قائما إلى اليوم هو حول نسبة هذا الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وهويته، هل تنسبه إلى الأدب الجزائري؟ أم نعتبره من الأدب الفرنسي؟ أم هو ما بين هذا وذاك؟ أم هو لا من هذا ولا من ذاك؟ تلك هي أسئلة موضوعية حاولت الإجابة عليها في هذا المبحث.

المطلب الأول: القائلون بقومية الأدب.

إن أصحاب هذا الرأي يرون أن عامل اللغة لا يمكن أن نعتمده كمعيار لتحديد هوية النص، فمادام النص الروائي يعبر بصدق عن واقع المجتمع الجزائري، ويصور بإخلاص حالة هذا المجتمع في ظل الاستعمار الفرنسي، كما فعل محمد ديب في ثلاثيته؛ حيث صور حالة البؤس والحرمان التي يعيشها سكان دار سبيطار، وسكان جبل بني بوبلان، كما صور حالة العمال المناضلين الذين يقودهم حميد سراج لتحقيق المطالب المشروعة للشعب الجزائري، وكما يصور ثقافة هذا البلد وتقاليده التي تختلف تماما عن ثقافة فرنسا الاستعمارية وعادات شعبها وتقاليده، مثلما فعل مولود فرعون في "ابن الفقير"، ومولود معمري في "الربوة المنسية"، وغيرهما. ما دام الأمر كذلك فهو أدب جزائري.

إذن فالأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إذا نظرنا إليه من زاوية المضمون فإننا نجده مرتبطا ارتباطا كليا بتاريخ الجزائر، وبالذات بالمقاومة الوطنية، وبكفاح الشعب الجزائري ضد العدو الأجنبي، فهو أدب تشكل لمناهضة الاستعمار وللدفاع عن الثوابت الوطنية، وعن المقومات الشخصية للأمة الجزائرية، حفاظا على الهوية من الانسلاخ والضياع؛ فليس من المنطق وليس من العدل أن نعتبر الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية أدبا فرنسيا، إن « **أدباء الجزائر استخدموا الفرنسية كسلاح لمواجهة الاستعمار** »[1] لأن

[1] عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991، ص 157.

هذا الاستعمار لا يفهم سوى اللغة الفرنسية من جهة، ومن جهة أخرى ليوصلوا انشغالاتهم إلى كل العالم. ولعل هذا ما عبر عنه كاتب ياسين، حيث يقول: «... **من يقاتل لا يسأل نفسه ليعرف إن كانت البندقية التي يستعملها فرنسية أو ألمانية أو تشيكية، إنها بندقيته وهي سلاحه وهي لا تخدم إلا معركته (...) إن الفرنسية ليست سوى أداة لتوصيل أفكارنا إلى المثقفين في العالم لنجذب به المفكرين الأحرار لنصرة قضية جزائرنا العربية...**»[1] لذلك فأصحاب هذا الرأي يرون بأن هذا الأدب يجب أن ينظر إليه على أساس « **الروح الجزائرية التي كتب بها**»[2] لا على أساس اللغة، لأن اللغة هي « **ليست المكون الثقافي الوحيد وربما ليست حتى الأهم** »[3] مقارنة بالمكونات الأخرى التي يتشكل منها النص الروائي كالفضاء الزماني والمكاني والأجواء والأشخاص...وغيرها لأن هذه العناصر إنما هي بمثابة مكونات ثقافية؛ فاليوم الثامن من مايو عام 1945م في " رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد، كما سنرى في الفصل التطبيقي ذات بعد ثقافي جزائري خالص، وكذلك "وريدة" و"قسنطينة" ... إلخ، وبالتالي فهذه العناصر مجتمعة (المكان، الزمان، الشخوص..) لا أعتقد أنها أقل ارتباطا بهوية النص من اللغة، واللغة في هذه الحالة ما هي سوى أداة استعيرت للتعبير الأكثر إفهاما للآخر. والأحسن ترجمة للأنا، وهذا ما عبر عنه مولود فرعون حين قال: « **يجب أن لا نبكي ونشعر بالضياع لأننا نكتب باللغة الفرنسية، فأنا شخصيا إذا كتبت باللغة الفرنسية فإنني لا أشعر بأية عقدة نقص فالكاتب مهما كانت اللغة التي يكتب بها إنما يقوم بعملية ترجمة لعواطفه، وأفكاره هو** » [4] فلا داعي للقلق إذن، فما اللغة إلا وسيلة تعبير كما يرى كاتب

---

[1] المرجع نفسه، ص نفسها.

[2] أحمد منور، المرجع السابق، ص 162.

[3] إبراهيم سعدي: الرواية الفرانكوفونية بوصفها نصا متعدد الثقافات، المجلس الأعلى للغة العربية، أعمال اليوم الدراسي (الرواية بين ضفتي المتوسط)، الجزائر، 2011، ص 68.

[4] أحمد منور، المرجع السابق، ص ص 163، 164.

ياسين الذي يعتبر « **الثقافة الفرنسية لا يمكن لها إلا أن تؤجج فينا الظمأ إلى الحرية والأصالة** ».[1]

فلا يجب أن ننقص من قيمة هذا الأدب، ومن جزائريته؛ فهو يظل جزائريا ما دام يحمل روحا عربية، وهما جزائريا ونزعة ثورية، لأن جزائرنا كما يقول كاتب ياسين « **ليست فردا بعينه أو شخصا بالذات، إنما هي فكرة ومعنى، أو هي قيمة ومثال، وهي أولا وأخيرا عربية** ».[2]

إن المتمعن في كلام كاتب ياسين يدرك بأن الأدباء الجزائريين الذين كتبوا باللغة الفرنسية لم يختاروا وإنما أجبروا على الكتابة بهذه اللغة، لأن فرنسا أرادت أن تكون « **أما تنتزع منهم أداة التعبير باللغة الأم، وأن تضع بين أيديهم أداة أخرى هي اللغة الفرنسية، لا حيلة لهم في الإعراض عنها إذا أرادوا أن تدور ألسنتهم بكلام، أو أن تجري أقلامهم بكتابة**».[3]

وعليه فلا داعي للتشكيك في هوية هذا الأدب الجزائري وفي ارتباط أصحابه بالهوية الأصلية.

المطلب الثاني: القائلون بأنه أدب فرنسي.

هناك من الباحثين من يقف في الصف المعارض؛ حيث ينفون انتماء الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية إلى الهوية الجزائرية، فما دامت اللغة التي كتبت بها ليست بلغة وطنية فهو ليس من الجزائري في شيء، ولن يكون جزائريا، فهذا الاتجاه يدعو

---

[1] المرجع نفسه، ص 164.

[2] عبد العزيز شرف، المرجع السابق، ص 157.

[3] نوال بن صالح: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية وثورة التحرير، صراع اللغة والهوية، مجلة المخبر، العدد السابع، 2011، ص ص 220، 221.

إلى عدم إغفال العامل اللغوي في تحقيق فعل الانتماء، لذلك « **يرى أنه ليس ممكنا اعتبار رواياتهم (أي الكتاب) باللغة الفرنسية جزء من التراث الثقافي العربي (...) ويستند أصحابه في ذلك إلى وجهة نظر مدرسة الأدب المقارن الفرنسية نفسها التي تلحق الأدب- مهما كانت جنسية كاتبه – بالأمة التي تتكلم اللغة التي كتب بها ذلك الأدب، وتعده من أدبها القومي** »[1].

وإذا تفحصنا هذا الأدب الذي كتبه أدباء جزائريون بلغة المستعمر، وخاصة الذي سبق سنة 1950م نجده في مجمله يعبر عن الأفكار التي كان يروج لها الاستعمار الفرنسي، ويعمل على ترسيخها داخل المجتمع الجزائري، وخاصة ما تعلق منها بالجانب الثقافي، فالكتابات الأولى التي ظهرت بدء من سنة 1920 من قبل عبد القادر حاج حمو، ورابح زناتي، ومحمد ولد الشيخ وغيرهم كانت تمجد الاستعمار، وتدعو إلى سياسة الإدماج، لأن هؤلاء الأدباء في الحقيقة هم نتاج المدرسة الفرنسية، ولهذا لا نستغرب لما نجدهم يشيدون بفضل الاستعمار عليهم، ويبدون إعجابهم بالثقافة الفرنسية، وبالحضارة الغربية، وما تتميز به من تشجيعها على نشر الرذائل، وارتكاب الفاحشة، وشرب الخمر، ولعب الميسر وما إلى ذلك مما يتنافى والثقافة العربية الإسلامية.

هذا ما أدى بأحد الدارسين الجزائريين ليصرح قائلا: « **إن هذا الأدب غريب في نفسه، ومنفي عن موطنه الذي كتب فيه، ولم يستطع أن يلعب دورا كبيرا في نهضة الأدب المعاصر بالجزائر، فضلا عن أن يلعب دورا خطيرا في إذكاء نار الثورة التي قيضت للشعب الجزائري أن يكسر قيود الاستعمار الثقيلة**».[2]

---

[1] أحمد منور، المرجع السابق، ص 177.

[2] عبد المالك مرتاض، المرجع السابق، ص 06.

وإذا نظرنا إلى المستوى الثقافي للجزائريين في ذلك الوقت فإننا نجد أكثر من ثمانين بالمئة منهم أميين لا يعرفون القراءة والكتابة فما بالك بمعرفتهم بلغة أجنبية عليهم (الفرنسية)، وهنا يطرح السؤال بقوة: لمن يكتب هؤلاء يا ترى؟ الجواب واضح ولا غبار عليه: إنما يكتب هؤلاء لمخاطبة الفرنسيين لا الجزائريين، وليتهم كانوا يخاطبونهم للمطالبة بحق الجزائريين في العيش الكريم، وفي الحرية والعدالة، إنهم كانوا يبحثون عن الرضا، وعن كسب الإعجاب من طرف الفرنسيين. لهذا كانوا يكتبون فيبدعون! وبذلك « **لم يتمكن الكتاب الجزائريون – بسبب حاجز اللغة – من الوصول إلى مخاطبة مختلف فئات المجتمع باستثناء مجموعة محدودة، وقد اسماهم "مالك حداد": الأيتام المحرومون من القراء الأصلاء** ».[1]

ولعل ما يزيد تدعيما لنفي فكرة جزائرية هذا الأدب، أن لغة الكتابة بالفرنسية من طرف الأدباء الجزائريين استمرت إلى ما بعد الاستعمار، بل إلى يومنا هذا، ولم تتوقف رغم فقدان شرعيتها في نظر الكثيرين، وعلى رأسهم مالك حداد، الذي دعا إلى وجوب التوقف عن الكتابة بالفرنسية، طالما أنه لم يبق مبرر للكتاب الجزائريين ليكتبوا بالفرنسية بعد الاستقلال، « **ولذلك كانت نظرة الجزائريين للموجة الجديدة من الكتاب نظرة احتقار إذ رأى بعضهم أن هؤلاء لا يمثلون المجتمع الجزائري، لأن لغتهم المستخدمة بعيدة عن لغة المجتمع، أو لأن أعمالهم تنشر في فرنسا، أو لأنهم تلقوا جوائز وتكريمات من الخارج** »[2] بل منهم من صار يحلم اليوم بجائزة نوبل للآداب في ظل مكسب الرضا الذي ناله من فرنسا الأم!.

---

[1] أم الخير جبور، المرجع السابق، ص 47.

[2] المرجع نفسه، ص 46.

المطلب الثالث: القائلون بأنه أدب بلا هوية.

بين الرأيين المتعارضين: الرأي القائل بجزائرية الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، والرأي القائل بفرنسيته يقف اتجاه ثالث بينهما؛ حيث يرى بأنه « **لم يتمكن الكتاب الجزائريون بالفرنسية من إرضاء جمهورهم الفرنسي ولا حتى الجزائري (...) مما جعل هؤلاء الكتاب يشعرون أنهم يقفون على الهامش في الضفة الأخرى بين المجتمع الفرنسي وكذا الجزائري**»[1] ولذلك فهو (الأدب) بلا هوية، حيث أنه لا يملك من الفرنسية سوى اللغة التي كتب بها؛ فكيف للأديب في هذه الحالة أن ينقل مشاعره وأفكاره للمواطن الفرنسي الذي يملك ثقافة مغايرة تماما لثقافة الكاتب الجزائري، كما أنه (الأديب) لا يستطيع إيصال أفكاره التي يعبر عنها بلغة الغير إلى أهل بلده؛ الذين لا يتقنون هذه اللغة بحكم الجهل والأمية التي عانى منها المجتمع الجزائري في تلك الفترة، بدليل أن نسبة المثقفين حينذاك لم تتعد 8 بالمئة، وفي هذا المجال ترى الدكتورة "أم الخير جبور" أن الرواية المكتوبة بالفرنسية في المغرب العربي « **لا تمثل التصورات الفرنسية أو المفاهيم الجزائرية، فهي أشبه بكائن مميز يجمع بين الشكل الفرنسي والمضمون الجزائري، كما أشار إلى ذلك الناقد "عبد الحميد حنون" الذي يشبه هذا الكائن بالمولود الاستثنائي، يولد ويكبر ويساهم في الحياة لكنه لا يمتلك شبيها ولا يمكن التخلي عنه** ».[2]

وعليه وبناء على الآراء المتضاربة حول هوية هذا الأدب الجزائري المكتوب باللغة الفرنسية، يمكن أن أعبر عن وجهة نظري كباحث حول هذه الإشكالية، التي أسالت الكثير من الحبر من طرف النقاد في ميدان الأدب،كما يمكن أن أشير إلى نقطة أثارت انتباهي كثيرا، لأنني أعتبرها بيت القصيد في كل هذه الآراء المتضاربة، هذه النقطة هي التي جاءت بها الدكتورة "أم الخير جبور"، حيث تقول عن الأدب الجزائري المكتوب

---

[1] المرجع نفسه، ص 45.

[2] المرجع نفسه، ص 46.

بالفرنسية:...كائن مميز يجمع بين الشكل الفرنسي والمضمون الجزائري، نعم إنني أرى ما رأته الدكتورة، إذ لا يمكن أن ننفي عن هذا الأدب جزائريته، بالنظر إلى « **التصاقه بالواقع الجزائري وبالثورة الوطنية العظمى** »[1] فكتابات مالك حداد ومولود فرعون ومولود معمري، ومحمد ديب، وغيرهم، كانت أداة من أدوات المقاومة استخدمها هؤلاء الأدباء للتعبير عن مأساة الشعب الجزائري، والدعوة إلى الثورة والتطلع إلى الحرية والاستقلال. وخير مثال على ذلك ما فعله محمد ديب في ثلاثيته حيث يعتبرها الكثيرون وعلى رأسهم واسيني الأعرج بمثابة « **نبوة صادقة عن الثورة حتى قبل اندلاعها** »[2]، وهذا من خلال رسم حالة البؤس التي يعيشها سكان بني بوبلان، ودار سبيطار، وكذلك النضال والكفاح الذي قاده حميد سراج بغرض توعية الجماهير، وإيقاظ الوعي في نفوسهم، لخوض المعركة ضد الغزاة. كذلك الأمر الذي قام به مولود فرعون، ومولود معمري، حيث قدما صورة حية عن الحياة اليومية وعن العادات والتقاليد في بلاد القبائل، وهذا ما يؤكد ارتباطهما الشديد بأصالتهما وبوطنيتهما، هذا دون أن ننسى مالك حداد الذي عبر عن الجحيم الذي عاشه في باريس* من خلال روايته "رصيف الأزهار لا يجيب" كما عبر عن تمسكه بالوطن وبوريده وبالجزائر وبقسنطينة وكذلك كاتب ياسين الذي استطاع أن يسمع صوت الجزائر إلى العالم، من خلال رائعته "نجمة" التي هي الجزائر في أسمى صور البطولة والتحدي والمقاومة « **إذن فمن السابق لأوانه اتهام الكتاب الجزائريين ذوي التعبير الفرنسي بالتقصير والانبهار بالحضارة الفرنسية**» [3] ومن العيب أيضا إنكار الدور الذي لعبوه في خدمة القضية الوطنية، وفي تطور الأدب الجزائري عموما، كما من

---

[1] واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر، بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986، ص 68.

[2] المرجع نفسه، ص 69.

* سيأتي بيان ذلك في الفصل التطبيقي.

[3] المرجع نفسه، ص 72.

العيب أيضا اعتبار "إلياذة الجزائر" "لمفدي زكرياء" أسطورة أدبية جزائرية شبيهة بإلياذة هوميروس، واعتبار ثلاثية محمد ديب مجرد رواية لا تساوي شيئا، فالمشكلة إذن لا تتعلق بحبهم وانبهارهم بالحضارة الفرنسية بقدر ما هم مضطرون للخضوع لهذا المنطق الذي فرض عليهم الكتابة بالفرنسية.

أما من حيث الشكل فإن هذا الأدب قد كتب بلسان فرنسي، وبلغة لم يكن يفهمها وقتذاك إلا قلة قليلة من النخبة الجزائرية المثقفة، التي تمكنت من اللغة الفرنسية نظرا لاعتبارات أشرت إليها سابقا، في الوقت الذي كان فيه الجزائريون يعانون من الجهل والأمية، وبالتالي فالأدباء الجزائريون إنما كانوا يكتبون للفرنسيين لا للجزائريين، كما أنهم كانوا يجيدون الكتابة إلى درجة أن تفوقوا فيها على نظرائهم الفرنسيين.

وعليه فإننا مبالغون في الاعتقاد إذا نحن اعتقدنا أن هذا الأدب جزائري خالص، فهو فرنسي الشكل لا محالة، وقد أكد ذلك أحمد منور في حوار أجرته معه جريدة الاتحاد حول هوية هذا الأدب، حيث قال: « **هو إضافة للأدبين العربي الجزائري والفرنسي على السواء (...) أما هويته فهي عربية بروح كتابها ومشاعرهم، وبالموضوعات التي تدور حول أعمالهم، بل حتى بأسلوب تعبيرهم الذي يستمدونه من لغتهم وثقافتهم الأصلية، وهي من جهة أخرى هوية فرنسية بحكم اللغة التي كتب بها** ».[1]

هذا إذا نظرنا إلى الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية من حيث الشكل والمضمون، أما إذا نظرنا إليه من حيث الحقبة الزمنية التي كتب فيها، فإنني توصلت إلى نتيجة من خلال هذا البحث، وهي أن هويته يمكن أن يحددها الزمن الذي كتب فيه، بحيث أنه كلما عدنا إلى الوراء وبالتحديد إلى سنوات العشرينات والثلاثينات كلما لمسنا فيه الروح الفرنسية؛ فكتابات الجيل الأول من الأدباء الجزائريين كانت تمجد فرنسا، وتنوه بدورها الحضاري، وتدعو إلى اندماج الجزائريين مع الفرنسيين، وكلما اقتربنا من سنوات الخمسينات والستينات كلما غابت عنه الفرنسية ولم يبق فيه منها سوى الهيكل وحلت محلها الروح الجزائرية.

وتبقى سنة 1948م أو 1950م تحديدا نقطة افتراق بين الهويتين الجزائرية والفرنسية، وفاصلا تاريخيا هاما في مضامين الكتابة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

---

[1] أحمد منور: جريدة الاتحاد، 29 يونيو 2013. Alittihad. Ae/ details. Php

الفصل الثاني

المقاومة الثقافية بين

الواقع والمتخيل

الفصل الثاني المقاومة الثقافية بين الواقع والمتخيل

مقدمة

المبحث الأول: مفهوم المقاومة الثقافية

المطلب الأول: تحديد المصطلحات

أولا: مفهوم المقاومة

ثالثا: المقومة الثقافية في الجزائر

المطلب الثاني: الواقع الثقافي في المتخيل السردي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية:

أولا: في الرواية

ثانيا: في الشعر

المبحث الثاني: الملامح السياسية والثقافية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي

المطلب الأول: السياسة الفرنسية في الجزائر

أولا: ضد اللغة العربية

ثانيا: ضد الدين الإسلامي

المطلب الثاني: الملامح السياسية

أولا: ظهور الأحزاب السياسية

ثانيا: تنوع الخطاب الإيديولوجي الجزائري

1- الخطاب التقليدي

2- الخطاب الاندماجي

3- الخطاب الوطني (الإصلاحي)

المطلب الثالث: الملامح الثقافية

أولا: تشكيل النوادي والجمعيات الثقافية

ثانيا: ظهور الصحافة

خاتمة

سأحاول في هذا الفصل التطرق إلى ما يسمى بالمقاومة الثقافية، وذلك من خلال التعريف بمفهوم المقاومة، والمقاومة الثقافية في الجزائر تحديدا؛ وهذا باعتبار المقاومة من أهم المواضيع التي اهتم بها أولئك الأدباء الجزائريون وهم يؤلفون الرواية باللغة الفرنسية، حيث كانت أعمالهم–في أغلبها–تحديا مرفوعا ضد الاستعمار الأجنبي الذي فرض عليهم لغته، وهذا في إطار الهيمنة الثقافية، والغزو الفكري، الذي يهدف بالدرجة الأولى إلى القضاء على المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية.

وعلى هذا الأساس سأعالج الواقع الثقافي في المتخيل السردي، في الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، كما سأحدد الملامح السياسية، والثقافية في الجزائر إبان الاستعمار الفرنسي، التي أحاطت بنشأة هذه الرواية.

المبحث الأول: مفهوم المقاومة الثقافية.

المطلب الأول: تحديد المصطلحات.

أولا: مفهوم المقاومة.

جاء في لسان العرب « **قاومه في المصارعة وغيرها وتقاوموا في الحرب أي قام بعضهم لبعض** » [1]، فالكلمة بهذا المعنى تعني استخدام المقاتل لكافة قدراته وقوته الجسمية والعضلية، وكذلك ما يملك من وسائل لمواجهة عدوه في الحرب.

أما اليوم فقد تطور مفهوم الكلمة وصار يعني شيئا آخر معنويا، وهذا بعيدا عن الاستخدام المادي؛ ذلك أن الإنسان المقاوم هو الذي يقف في وجه الظلم والاستبداد، بغرض الدفاع عن العرض، وعن الدين، والشرف، والوطن.

ومن هنا تعتبر المقاومة صورة من صور الرفض، والتمرد وعدم القبول والرضوخ والاستسلام، ومحاربة العبودية والظلم والطغيان والاستبداد، وكل شكل من أشكال الاستعمار، يتبناها أفراد وجماعات ضد السلطة الحاكمة، ما قد يجعلهم – أحيانا– خارجين عن القانون في نظر هذه السلطة فتسميهم "إرهابيين" « **ويتحدد معيار التمييز بين المقاومة والإرهاب بالاستناد إلى شرعية العمل ونبل الأهداف** ». [2]

وتأخذ المقاومة من حيث الوسائل المستعملة عدة أشكال: فقد تكون سلمية، كما قد تكون مسلحة، ومن أنواع المقاومة السلمية نجد المقاومة الثقافية. وذاك ما يهمنا في هذا البحث.

---

[1] ابن منظور (أبو الفضل محمد بن جلال الدين مكرم الأنصاري): لسان العرب، المجلد الخامس، دار الفكر، ط الأولى، بيروت، 2008، ص 348، 4580.

[2] إبراهيم لقمان: ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة (دراسة فنية)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، 2007، ص 62.

وقبل الخوض في هذا الموضوع، يجب أن أذكر بأن الشعب الجزائري من الشعوب التي ناضلت في سبيل استرجاع سيادتها، التي سلبها أياها الاستعمار الفرنسي، وقد استخدمت عدة وسائل في هذا الصدد لعل أبرزها المقاومة الثقافية، ولهذا سأركز في تعريف المقاومة الثقافية على الجزائر، باعتبارها خاضت هذا النوع من المقاومة، في وقت من الأوقات الحرجة التي مرت بها عبر تاريخها الطويل.

ولكن قبل ذلك ينبغي أن أعرف الثقافة أولا.

ثانيا: مفهوم الثقافة.

رغم أن كلمة "الثقافة" تعتبر من أكثر الكلمات استعمالا، سواء في الأدب أم في علم الاجتماع، أم في غيرهما، إلا أنها من أكثرها أيضا غموضا والتباسا؛ذلك أنها لم تلق إجماعا من حيث تعريفها، والسبب في ذلك ربما يعود إلى كثرة استعمالها « **حيث أن كل علم من العلوم يقدم تعريفا لها يتماشى ومبادئه وأهدافه**».[1]

وقد أعطاها مالك بن بني أكثر من تعريف، لأنه يرى بأنها مشكلة حقيقية، وربما لهذا السبب خصص لها بحثا كاملا وسمه بـ "مشكلة الثقافة". وقد اعترف بأن هذه الكلمة لم ترد بشكل واضح في القواميس عبر العصور الماضية [2]، ولكنه اعترف بأن كلمة الثقافة تعني الحذق والفطنة.

يقال: ثَقِف الشيء ثقفا وثِقافا وثُقوفة، حذقه، ورجل ثَقِف وثَقف وثَقُفٌ: حاذق فهِمٌ ويقال ثقف الشيء: وهو سرعة التعلم.[3]

---

[1] الصادق العلالي: العلاقات الثقافية الدولية (دراسة سياسية قانونية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006، ص 25.

[2] ينظر مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، دار الوعي، الجزائر، ط2، 2013، ص 19.

[3] ابن منظور: المرجع السابق، ص 922.

والحقيقة أن كلمة "ثقافة" لها علاقة بالكلمة اللاتينية (culture)« **فمفهومها ثمرة من ثمار عصر النهضة، عندما شهدت أوروبا في القرن السادس عشر انبثاق مجموعة من الأعمال الأدبية الجليلة في الفن وفي الأدب وفي الفكر**»[1] كما لها علاقة وطيدة بالجانب المعنوي فهي تفيد تثقيف العقل، وتنمية الفكر، وصقل المعرفة وتطوير الفن... وهذا ما يتفق مع التعريف الشامل للثقافة، والذي جاء به الإنجليزي "تايلور" (Taylor) عام 1871 في كتابه primitive culture (الثقافة البدائية) حيث يعرفها بـ: « **ذلك الكل المركب الذي يشتمل المعرفة والعقيدة ، والفن والأخلاق والقانون، والعادات، وأي قدرات وعادات أخرى يكتسبها الإنسان بصفته عضوا في المجتمع**»،[2] فهي بهذا المفهوم عبارة عن موروثات اجتماعية في نظر "تايلور" – يكتسبها الإنسان من المجتمع الذي يعيش فيه، كما يساهم في إنتاجها أيضا.

وعليه فالثقافة إذن « **هي التراث الفكري الذي تتميز به جميع الأمم عن بعضها البعض** » [3] باعتبار أن كل أمة من هذه الأمم لها عقيدتها الخاصة، وقيمتها المميزة لها عن سائر الأمم الأخرى، الأمر الذي يحتم على أبنائها الامتثال والخضوع لهذه الثقافة، سواء تعلق الأمر بالعادات، أم التقاليد، أم التصورات...

إذن وانطلاقا من هذه المفاهيم ينبغي أن أخوض الآن في قضية المقاومة الثقافية في الجزائر.

---

[1] مالك بن نبي، المرجع السابق، ص 25.

[2] الصادق العلالي: المرجع السابق، ص ص 30، 31.

[3] الأنثربيث: maodoo3.com محمد فيضي 24 يونيو 2014.

ثالثا: المقومة الثقافية في الجزائر.

لقد تعرضت الجزائر عبر العصور التاريخية إلى ظاهرة الاستعمار، فكانت مطمعا لكثير من الشعوب التي أرادت الاستقرار بأرضها، والانتفاع بخيراتها.

ولكن « **الثقافة العربية في الجزائر قبل الاستعمار الفرنسي كانت مزدهرة نسبيا، وأن معظم السكان الجزائريين كانوا يتقنون القراءة والكتابة والحساب**» [1]، ولعل هذا ما يدحض الأكاذيب التي روجت لها السلطة الفرنسية الاستعمارية، التي حاولت إيهام الجزائريين بأن بلادهم قد عانت ويلات الجهل والأمية في القرون الماضية. وهاهو الرحالة الألماني "فيلهم شمبر" يؤكد – حين مر بالجزائر سنة 1831– على بطلان المزاعم الفرنسية حيث يقول: « **لقد بحثت قصدا عن عربي واحد في الجزائر يجهل القراءة والكتابة غير أنني لم أعثر عليه، في حين وجدت ذلك في بلدان جنوب أوروبا** ». [2]

غير أنه وبمجرد دخول فرنسا إلى الأرض الجزائرية راحت تعبث بالجزائريين من خلال محاولة إضعافهم فكريا، وثقافيا، عن طريق القضاء على المراكز الثقافية، وتهديم بعض المساجد، وتحويل بعضها الآخر إلى كنائس، وتشجيع الشعوذة، ونشر البدع والخرافات، والتضييق على المثقفين؛ إما بنفيهم خارج الجزائر، وإما بإدخالهم السجون والمعتقلات.

وهذا باعتراف الفرنسيين أنفسهم من أمثال "جون بول سارتر" باعتباره أحد أصدقاء الثورة الجزائرية، الذي يعترف بالخراب الثقافي الذي حل بالجزائر بعد دخول الاستعمار الفرنسي حيث يقول: « **ولكننا على كل حال أردنا أن نجعل من إخواننا المسلمين شعبا**

---

[1] نجية طهاري: بناء الشخصية في مسرح أحمد رضا حوحو، مذكرة ماجستير، جامعة باتنة، 2010، 2011، ص 10.

[2] إبراهيم لقمان: المرجع السابق، ص 62.

من الأميين » [1].هذا ما دفع بالجزائريين وخاصة المثقفين منهم إلى أن يقرروا الوقوف في وجه الظلم والاستبداد، ورفض الذل والخنوع، ومحاربة الهيمنة الفكرية والروحية، وذلك لحماية الذات، والدفاع عن المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية، لمنعها من الانسلاخ، والذوبان، وهذا للحفاظ على الهوية والثقافة الوطنية.

فظهر في هذا المجال جماعة من الجزائريين يمثلون نخبة المجتمع، أخذوا على عاتقهم هموم الأمة، وراحوا يستعملون القلم في فضح العدو، وكشف جرائمه البشعة التي ارتكبها في حق الجزائريين المستضعفين، فكتبوا الرواية، وألفوا القصة، ونظموا الشعر، واكتشفوا المسرح، كما أنشأوا الجمعيات الثقافية والدينية... وغيرها من أدوات المقاومة الأخرى...

وكان هدفهم في ذلك هو إثبات وجودهم، والحفاظ على كيانهم الروحي والفكري.

المطلب الثاني: الواقع الثقافي في المتخيل السردي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.

لقد خاض الشعب الجزائري كفاحا مريرا وطويلا ضد الاستعمار الفرنسي، الذي سعى وبكل الوسائل إلى هدم وتحطيم الشخصية الجزائرية، وذلك بالقضاء على القيم والعادات الثقافية والحضارية للأمة، وقد استمر هذا الكفاح قرابة قرن وربع القرن، استعمل فيه الجزائريون مختلف الوسائل السلمية منها والعسكرية، ومن أهم هذه الوسائل الثقافة الوطنية؛ ذلك أن الثقافة أداة مهمة لبث روح الكفاح في النفوس، وتغذية طاقة المقاومة في القلوب والعقول، وهذا ما تفطن له الجزائريون بعدما فشلوا في إلحاق الهزيمة بالعدو، من خلال المقاومات الشعبية المسلحة التي قادها زعماء وطنيون مخلصون عبر فترات زمنية متسلسلة. إنهم أيقنوا بأن الثقافة الوطنية قادرة على خوض الكفاح بدل السيف والبندقية..

---

[1] المرجع نفسه، ص 63.

وقد « **أشار إلى هذا الكاتب فرانز فانون*** **إذ يقول: في الجزائر توجد علاقة بين الثقافة والنضال السياسي منذ 1830م** » [1] وهذا لأن الإنسان المثقف هو الملهم الذي يقود الشعب، وينظم صفوفه استعدادا للمعركة من خلال ما يكتبه، وما يلقيه على الجماهير من خطب حماسية، وأشعار، وقصص وروايات.....وذلك ما بينه الكاتب الجزائري "البشير حاج علي" في إحدى مقالاته باللغة الفرنسية « **عنوانها "الثقافة الوطنية والثورة" إذ قال: منذ 1830 نلاحظ علاقة مستمرة بين الثقافة والنضال السياسي، وهذه العلاقة المتينة الثابتة نكشفها في هذا الحقل الثقافي الذي حفره الشعراء والمغنون المجهولون والرواة في تاريخنا منذ 1830** » [2] لهذا وتأكيدا لهذه الفكرة، فإن أدباء الجزائر ومثقفيها سواء أكانوا رواة أم شعراء، وخاصة منهم الذين كتبوا باللغة الفرنسية، قد قدموا إنتاجا أدبيا غزيرا أسهموا به في رفع الغبن عن أبناء وطنهم، وبثوا روح الكفاح والمقاومة في أنفسهم، من خلال ما كتبوه من إنتاجات أدبية غزيرة، فكانوا بذلك لسان حال الأمة لأن « **الكاتب الحق في مفهومنا اليوم هو ذلك الذي يقدم لنا نتاجا يحوي أفكارا اجتماعية أو سياسية (...) وأن وظيفة الأدب لم تعد ترفيهية أو جمالية هدفها المتعة الذهنية أو الروحية فقط، بل مهمتها بالدرجة الأولى اجتماعية وإنسانية تخدم أهدافا سامية نبيلة**». [3]

---

* فرانز فانون من مواليد 1925 بجزر المارتينيك، طبيب نفساني، وفيلسوف اجتماعي عرف بنضاله من أجل الحرية، وضد التمييز والعنصرية، عمل طبيبا عسكريا في الجزائر، انضم إلى الثورة الجزائرية وانخرط في حزب جبهة التحرير الوطني، مثل الحكومة الجزائرية المؤقتة في دولة غانا كسفير، توفي سنة 1961 بمرض السرطان، يعتبر من أبرز الكتاب المناهضين للاستعمار، من أهم كتاباته، معذبو الأرض. ينظر: ويكيبيديا.

[1] أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر (من سنة 1945 حتى الاستقلال)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 61.

[2] المرجع نفسه، ص نفسها.

[3] المرجع نفسه، ص 62.

وقد استلهم هؤلاء الكتاب والأدباء أفكارهم من واقع الشعب الجزائري، ومن بطولاته، وكفاحه، وثوراته ضد المستعمر المعتدي ؛ بحيث « **شكلت الثورة نقطة تحول أساسية في مسار التجربة الروائية الجزائرية، حيث أصبح الحديث عن الثورة والنهل منها اعتبارا ضروريا في الكتابة الروائية**» [1]، من خلال تصوير تضحيات الشعب الجزائري، ورسم أحداث الثورة وبناء نماذج أبطالها... كما صار الأدباء طرفا رئيسيا في الصراع القائم بين الجزائريين والاستعمار الفرنسي،« **أصبح الموضوع الذي تدور حوله جميع أعمالهم هو حرب التحرير ومقاومة المستعمر، رفضا للاستغلال والتسلط**» [2] الأمر الذي دفع بالسلطات الاستعمارية إلى التضييق على هؤلاء الأدباء من خلال الزج بهم في السجون، وتسليط عليهم أقسى أنواع العذاب أو نفيهم إلى خارج الجزائر بعيدا عن واقع بلدهم، بالإضافة إلى حرمانهم من لغتهم القومية اللغة العربية، وفرض اللغة الفرنسية، تلك اللغة الغريبة عن الجزائريين، وقد نجح في ذلك المسعى؛ حيث «**تمكن من أن يجعل من لغته وسيلة للتعبير في الأدب الجزائري**» [3] فأصبح الكاتب الجزائري – برغم امتلاكه للغة الفرنسية التي اعتبرها غنيمة حرب – يعيش حالة اغتراب ثقافي حقيقية، لأنه حرم من اللغة العربية التي يفهمها أبناء وطنه.

ولكن – والحق يقال – أن الأدباء الجزائريين الذين كتبوا بالفرنسية برغم هذا الاغتراب الثقافي الذي أحسوا به، وذاقوا مرارته، إلا أنهم تمكنوا من تأدية رسالة إنسانية في سبيل خدمة القضية الوطنية، من خلال تركيز كتاباتهم على حركة التحرر والثورة، والوقوف في وجه الطغيان، وإسماع أصواتهم إلى كل أحرار العالم. وفي هذا الصدد يقول

---

[1] آمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2011، ص 52.

[2] عبد العزيز شرف: المرجع السابق، ص 63.

[3] المرجع نفسه، ص نفسها.

مالك حداد « **لم تكن الحرية بالنسبة لنا نحن كتاب الجزائر نعمة أو فضلا، بل كانت إمكانية عمل، إن الليل مهما يكن ثقيلا، ومهما يكن رهيبا، لم يمنع العنادل من أن تغني، وليس ثمة قوة في العالم أوتيت من المحبة للحرية والدفاع عنها مثلما أوتينا نحن**». [1]

نعم، إن التوق للحرية هو الذي حرك مشاعر الكتاب الجزائريين، ودفع بهم إلى اتخاذ القلم سلاحا للذود بواسطته عن سمعة الوطن، وعن شرف أبنائه إنها رسالة نبيلة كان لزاما عليهم تأديتها، كما قال محمد ديب: « **في قلب كل كاتب حق، وكل فنان صادق تكمن رسالة وطنية لا تقوم له قائمة بدونها**». [2]

صحيح أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في بداياته الأولى لم يكن موجودا بالمعنى الحقيقي للأدب، أي أنه لم يكن أدب مقاومة بقدر ما كان أدب مجاملة وثناء على المستعمر وعلى فضله! فروايات عبد القادر حاج حمو، و ورابح زناتي، ومحمد ولد الشيخ وغيرهم لم ترق إلى مستوى التطلعات، ولم تفضح المستعمر، ولا دسائسه ومخططاته بقدر ما تغنت بمآثره، ودعت إلى الاندماج والتعايش معه.

ولكن بانتهاء الحرب العالمية الثانية، وتبلور الوعي الفكري لدى الكتاب الجزائريين بدأ الإنتاج الأدبي في التدفق، وشهدت الساحة الثقافية والأدبية بشكل عام حركة فكرية واسعة تمثلت في بروز العديد من الأدباء على غرار كاتب ياسين، ومالك حداد، ومولود معمري، ومولود فرعون، ومحمد ديب... وغيرهم. حيث دخل هؤلاء في مواجهة ثقافية ضد الاستعمار الفرنسي، فأبدعوا برواياتهم وقصائدهم في تصوير حياة الشعب الجزائري

---

[1] المرجع نفسه، ص 69.

[2] المرجع نفسه، ص نفسها.

البائس، والتعبير عن معاناته الفكرية قبل الجسدية، وهذا ما سأتطرق إليه من خلال لونين من ألوان الأدب وهما الرواية والشعر.

أولا: في الرواية.

إن نهاية الحرب العالمية الثانية وظهور حركات التحرر لهي نقطة البداية لظهور الرواية الجزائرية المقاومة المكتوبة بالفرنسية، والتي اتخذ منها أصحابها أداة للثورة على التقاليد الفكرية التي كانت سائدة، ومواجهة الثقافة الأجنبية التي فرضها الاستعمار المحتل، سعيا وراء « **إعادة البناء الثقافي الوطني**». [1]

وتعد سنة 1950 بمثابة الانطلاقة الحقيقية للرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، فقد كتب محمد ديب "الدار الكبيرة"، كما كتب كاتب ياسين "نجمة"، وكتب مولود فرعون "الأرض والدم" و"ابن الفقير"، وكتب كذلك مولود معمري "الربوة المنسية"، ثم بدأت الروايات تصدر تباعا، وقد كانت كلها أو على الأقل في معظمها ردا صريحا من أصحابها على محاولة الاستعمار القضاء على ثقافة الشعب الجزائري، فهي بذلك سلاح من أسلحة المقاومة الثقافية، رفعه هؤلاء الرجال الذين – وإن تعلموا في المدرسة الفرنسية – فإنهم « **عاشوا حقيقة الشعب الجزائري، وأرادوا التعبير عن ذلك الواقع محاولين بذلك بعث التقاليد والقيم، والمحافظة على كيان الأمة ووحدتها**». [2]

والرواية باعتبارها مسرحا للصراعات الفكرية فإنها بذلك ساعدت على تصوير حالة المجتمع الجزائري، حيث كشفت واقع هذا المجتمع الذي ظل ولفترة طويلة يعاني ويلات التخلف الفكري والاجتماعي والسياسي... بسبب الاستعمار.

---

[1] المرجع نفسه، ص 84.

[2] سعاد محمد خصر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، بنان، 1967، ص 129.

وهكذا فإن الرواية الجزائرية ذات التعبير الفرنسي قد ظلت أداة من أدوات المقاومة، يبرز فيها كتابها بنزعتهم الإنسانية التي تتوق إلى الحرية، والتخلص من أزمة الصراع بين ثقافتين مختلفتين: ثقافة محلية أصيلة وثقافة أجنبية وافدة غريبة.

ويعتبر محمد ديب واحدا من الروائيين الجزائريين الذين برزوا بأعمالهم الروائية في رسم حالات الفقر والجهل والتخلف التي عاشها أبناء المجتمع الجزائري، سواء في الريف أم في المدينة، وتعد ثلاثيته (الدار الكبيرة- الحريق- النول) أصدق تعبير عن هذه المأساة، فهي « **مذكرات الشعب الجزائري، كما وصفها أراجون، أو هي الجزائر نفسها كما وصفها معظم النقاد الذين تناولوها بالتقييم**». [1]

إن هذه الثلاثية تعكس الواقع الجزائري كما عاشه أبناء الجزائر من شرقها إلى غربها، ومن شمالها إلى جنوبها، تصور الواقع المر، « **ولكن روح المقاومة الجزائرية تتأكد من خلال الشخصيات لمقاومة عمليات المحو الذائبة للشخصية العربية، وتذويب الشخصية الجزائرية في المحيط الفرنسي**». [2]

فهذا المعلم "حسن" يلقن تلامذته معنى الوطن الحقيقي، بعدما كانوا لا يعرفونه بسبب سياسة التجهيل والخداع والمراوغة التي اتبعتها فرنسا في المدرسة، وذاك "حميد سراج" يؤطر العمال، ويدعوهم إلى التظاهر، والثورة على الأوضاع الاجتماعية المتردية، من أجل تحسين الأحوال المعيشية.

وذلك "عكاشة" الرجل الثائر الذي يحث الجزائريين على الثورة، وعدم الرضوخ للأمر الواقع حيث يقول « **ألقد هبطنا إلى الحضيض ولن نستطيع العودة إلى إنسانيتنا**

---

[1] عبد العزيز شرف: المرجع السابق، ص 95.

[2] المرجع نفسه، ص نفسها

بالطرق العادية، وسنجبر على قلب العالم، بل على إرهابه..إن شعبنا قد أهين وسيخرج منه شيء هائل..». [1]

والأمثلة كثيرة، فالمقاومة هي السمة الغالبة على معظم شخصيات أعمال محمد ديب.

وإذا انتقلنا إلى كاتب ياسين فإننا نجده هو الآخر قد سار في فلك محمد ديب، حيث جعل من أدبه أدب مقاومة بامتياز، ويتجلى ذلك من خلال روايته "نجمة" حيث يقول فيها: « **يجب أن نفكر بمصير الوطن الذي أتينا منه، أنه ليس مقاطعة فرنسية وليس على رأسه باي ولا سلطان، ربما تفكر في الجزائر التي ما برحت عرضة للغزوات في التاريخ، وفي ماضيها المستغل لأنا لسنا أمة، لم نصبح أمة بعد، نحن لسنا إلا قبائل منكوبة**» [2]، فكاتب ياسين جعل من نجمة صورة للجزائر الحبيبة والجريحة في آن واحد، والتي لا تستسلم لمحاولات الاستعمار تمزيقها، فهي تبقى صامدة مقاومة، موحدة، رغم الجراح التي لحقت بها ذات يوم من أيام مايو 1945.

نفس صور المقاومة نلمسها في أدب (روايات) مولود معمري، ومولود فرعون رغم أنهما اختارا البيئة القبائلية للتعبير عن المأساة الجزائرية، فالأول كتب "الربوة المنسية"، لتكون بمثابة المنشأ الأصلي لذلك الجزائري الوفي لعاداته وتقاليده، ذلك المنشأ الذي بقي عزيزا في القلب، رغم الابتعاد عنه بسبب المنفى الإجباري الذي كان نصيب كل جزائري مثقف، غير مهادن للاستعمار، أما الثاني (مولود فرعون) – وإن ركز في أعماله الروائية على البعد الإنساني – فإننا نجده « **يركز على بعد من أبعاد المأساة الجزائرية: الفقر، الذي يشكل إلى جانب الاستعمار والتخلف الثقافي أبعاد المأساة**» [3] ولهذا نجده في

---

[1] المرجع نفسه، ص 98.

[2] المرجع نفسه، ص ص 104، 105.

[3] المرجع نفسه، ص ص 93، 94.

رواياته يدعو إلى مواجهة الفقر، والجوع الذي فرضه الاستعمار على الجزائريين، ولو بالصيام الذي هو فريضة على الأمة الإسلامية، وفي ذلك إشارة واضحة إلى المقاومة الثقافية التي طبعت الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية بشكل عام.

ثانيا: في الشعر.

يعتبر الشعر من أهم الوسائل التي استخدمها الأدباء الجزائريون عموما وكتاب الفرنسية خصوصا في مواجهة العدو، إذ راحوا يعبرون عن آلام الشعب، وعن عواطفه، ويدعون إلى مقاومة الغزو الفكري والثقافي، الذي حل بثقافة هذا الشعب العربي المسلم، كما عملوا على بث الحماس والوعي، وغرس قيم الروح الوطنية في نفوس الجزائريين،« **فكان هذا الشعر ثورة على نواحي التأخر في الحياة الاجتماعية والثقافية**» [1] وقد اتخذ الشعر المعبر بالفرنسية من الثورة مرجعيته الحقيقية، حيث تغنى ببطولات الجزائريين الثائرين في الكفاح والمقاومة، كما واجه الوضع الصعب الذي عاشته الجزائر والذي اتسم بالفقر والجهل، والانحدار الثقافي والاجتماعي.

ويعتبر مالك حداد من الشعراء القلائل الذين برعوا في هذا الفن، حيث جعل من الشعر أداة من أدوات المقاومة، وقد صدر له ديوان شعري " الشقاء في خطر" سنة 1956م، تغنى فيه بالثورة، ودعا إلى مواجهة العدو « **بالكلمة الشعرية المعبرة والمؤثرة**».[2]

وقد تأكد دور هذه الكلمة المعبرة في ديوانه الثاني "أسمعني وأناديك" الذي أصدره سنة 1961م، والذي يؤكد من خلاله على « **قدرة الشاعر الخارقة على الإبداع، وهو**

---

[1] أنيسة بركات درار: المرجع السابق، ص 79.

[2] أحمد منور: المرجع السابق، ص 110.

الشيء الذي جعل الشاعر الفرنسي الشهير "لويس اراغون" يعجب به ويصفه بأنه من طيور الأغصان العليا». [1]

إن مالك حداد أعطى للكلمة الشعرية بعدها الإنساني والحضاري، كما حدد مهمة الشاعر المتمثلة في إنشاد الحرية، والتخلص من الشقاء، ويعبر عن ذلك في هذه الأبيات:

« لقد خلقت لأتحدث إلى البنفسج الهادي.....

ولقد نسجت لحنا راقصا فوق قميص من الأزاهير

غير أني رأيت هذا الفلاح يصبح قاطع طريق

حين كان يحب زوجته كما كان يحب وطنه». [2]

كما عبر مالك حداد الشاعر عن انتمائه القومي للجزائر، وعن تمسكه بمقومات الشخصية الوطنية التي حاول الاستعمار طمس معالمها، حيث يقول:

«أتسمونني جزائريا

لا تقـــولوا ذلـك

فهذه شقيقتي لا تضع على وجهها الخمار

ألم أحصل في المدرسة على كل الجزائر في الفرنسية، في الفرنسية وباللغة الفرنسية

إن البرنس الذي ارتداه أجـدادي

البرنس الذي يتراءى أمامي في كل مكان...

---

[1] المرجع نفسه، ص 111.

[2] عبد العزيز شرف: المرجع السابق، ص 11.

ما يـــــزال دثـــاري

ما يزال استمرار الحيـــاة في داري». [1]

أما بخصوص اللغة الفرنسية التي تعلمها مرغما، فإن موقفه من ذلك واضح، حيث عبر عنه في أكثر من مرة، إنه يعتبر الفرنسية منفاه الذي أبعده عن لغته الأصلية اللغة العربية، وحرمه من التعبير بها.

وهذا ما نلمسه حين يقول:

« وهـــنـــاك...

صنع الجحيم الذي يقيمه صانعو المغامرات السود

المذاق المر لعادات غريبة تفرض بالـــقـوة

هناك كـــــل هـــــذا...

وبالرغم من كل هذا نعـــيـــــش...

إني أتمـــــزق ضـــجـــرا

كلما تذكرت أني بعيد عن الجـــــزائر». [2]

أما الجزائر التي تمزق من أجلها مالك حداد الشاعر، فإنها زادته تمزقا في اليوم الثامن من مايو 1945، حينما أقدم الاستعمار الغاشم على ارتكاب مجزرة شنيعة في حق شعب أراد الحياة، الأمر الذي جعل من مالك حداد يولد من جديد، وتولد معه طاقة شعرية عنيفة، خاصة وأنه يعيش في المنفى بعيدا عن وطنه الذي اعتبره "غزالة"

---

[1] المرجع نفسه، ص 114.

[2] المرجع نفسه، ص نفسها.

« إن غزالتي تشكو وحدتها القاتلة في أعماق الصـــــحراء

إني لأحس السجن في قلبي مهما تخطى الـــــحـــــــدود

إني أتمزق ضجرا كلما تذكرت أني بعيد عن أرض الجـــزائر». [1]

هذا وقد واصل مالك حداد مسيرته الشعرية بتأليفه لديوان شعري آخر "أنصت وأنا أناديك"، لتتواصل معه روح المقاومة الثقافية ضد المأساة الوطنية.. وهي المسيرة التي سار عليها أدباء آخرون من أمثال كاتب ياسين، الذي أظهر شاعرية كبيرة من خلال المسرح كما في "الجثة المطوقة"، والمجوعة الشعرية التي أصدرها سنة 1946 وأسماها بـ"نجوى" (Soliloques)، وكذلك رواية "نجمة" التي هي في الحقيقة بمثابة « **رواية شعرية، يمكن قراءة فصولها كنصوص شعرية مستقلة**» [2]، وهي رمز للوطن المغتصب، وللمأساة الجزائرية.

[1] المرجع نفسه، ص 115.

[2] أم الخير جبور، المرجع السابق، ص 386.

المبحث الثاني: الملامح السياسية والثقافية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي.

المطلب الأول: السياسة الفرنسية في الجزائر.

أولا: ضد اللغة العربية.

من الواضح أن السياسة الفرنسية التي انتهجتها فرنسا بعد احتلالها للجزائر كان الهدف منها القضاء على اللغة العربية، باعتبارها إحدى المقومات الأساسية للشخصية الوطنية إذ « **لم تمض إلا ثمانية أعوام على الاحتلال حتى أصدر الوزير الفرنسي "آلم شوتان" مرسوما يقضي بتحريم اللغة العربية باعتبارها لغة أجنبية**» [1] لقد أدركت فرنسا أن اللغة العربية هي تلك اللغة التي تغلغلت في نفوس الجزائريين، وسيطرت على كل الدوائر الرسمية في دواليب الإدارة والمساجد وغيرها، ما جعلها تبذل قصارى جهودها من أجل « **تعيين أناس من أعوانها للإشراف على قضايا التعليم في المساجد والمدارس**» [2]، كما عملت على إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في كل المعاملات، وبخاصة الرسمية منها، كالمدارس، والإدارات وغيرها...وهذا في إطار ما يسمى بفرنسة المجتمع الجزائري، وإحكام السيطرة على مقوماته، وإحلال ثقافتها الغربية على الشعب الجزائري.

ومن أجل تحقيق هذه الغاية وضعت فرنسا الاستعمارية خطة محكمة، وأسلوبا غاية في الوحشية، حيث اعتمدت سياسة التجهيل التي تحرم الجزائريين من التعليم مطلقا

---

[1] محمد الصالح الصديق، كيف ننسى وهذه جرائمهم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2012، ص 75.

[2] بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، دار الرائد، دار النفائس، الجزائر، ط خاصة، ص 48.

في بداية الأمر، ثم خيرتهم بعد ذلك بين أمرين أحلاهما مر إما « **الفرنسة أو الجهل**»[1] ولهذا «**ألغوا المدرسة الوطنية العربية، وأنشأوا بدلها مدرسة فرنسية لغة واتجاها ومضمونا، لتكون هذه المدرسة وسيلة لمحاربة اللغة العربية** ». [2]

والحقيقة كل الحقيقة أن هدفهم في ذلك لم يكن تعليم الجزائريين اللغة الفرنسية بقدر ما كان القضاء على هويتهم، وقوميتهم، وسلخهم عن ثقافتهم الأصلية والأصيلة، وجعلهم تابعين قوميا لفرنسا، ولعل هذا ما يفسر الحرب الهوجاء التي شنت ضد كل من تسول له نفسه تعليم الجزائريين اللغة العربية، من العلماء والأئمة والمثقفين... حيث شددوا عليهم الخناق، وزجوا بهم في السجون وشوهوا صورتهم في المجتمع الجزائري «**ومن ذلك محاربة ابن باديس وجمعية العلماء بكل الوسائل وحتى الدسائس** ». [3]

وهكذا فقد أصبحت اللغة العربية غريبة في المجتمع الجزائري العربي المسلم وأصبح الجزائري يعيش حالة اغتراب ثقافي حقيقي، حتى صار الجزائري يقول:« **نحن أميون لا نعرف لغة مولدنا**». [4]

كما أن هدفهم الأسمى من وراء كل ذلك هو تغيير صورة الجزائر، وإضعاف المقومات الأساسية لثقافتها الشرقية و«**القضاء على الشخصية الجزائرية عن طريق محو مقوماتها الأساسية لإذابتها في المجتمع الأروبي، وسلخها نهائيا عن انتمائها العربي الإسلامي** ». [5]

---

[1] عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1998، ص 79.

[2] المرجع نفسه، ص 81.

[3] المرجع نفسه، ص 83.

[4] أنندري لوكورتوا: جزائر الخمسينات شهادة قس، تر عبد القادر بوزيدة، لزهاري لبتر للنشر، الجزائر، 2013.

[5] عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 63.

ومن هنا بدأت فكرة الصراع اللغوي بمجرد دخول فرنسا إلى أرض الجزائر، حيث اتجهت مباشرة لضرب المقومات، لأنها تدرك بأنه لو بقي الشعب متمسكا بهويته فلن يقبل الاستعمار، ولهذا اتجهت نحو اللغة، كما تصرفت كذلك في الدين*؛ حيث استولت على الأوقاف، والمساجد التي كانت تسير شؤون الدين، وأبقت المساجد ولكنها كانت تتحكم في تعيين الأئمة، وتحديد نشاط المساجد. المهم أنها لم تحذف الدين ولكنها حذفت اللغة وحرمت تعليمها وتعلمها، ورغم ذلك فقد عجزت عن منعها في الزوايا والكتاتيب، وقيدتها بالمراقبة والشروط، وحتى المعلمون الذين كانوا في جمعية العلماء المسلمين التي تأسست سنة1931، حيث توجهت هذه الجمعية إلى بناء المدارس لتعليم العربية والتربية الإسلامية، وأرسلهم ابن باديس إلى تونس بغرض التعلم والعودة إلى الجزائر محملين بالعلم، كانت فرنسا تراقبهم وتتابع وتسجن بعضهم، وكان هدفها من وراء ذلك أن تجعلهم يسأمون ويبتعدون عن هدفهم، فمنهم من هجر البلد ومنهم من عذب في السجون، ولهذا فالمتنفس الوحيد الذي تتنفس منه اللغة العربية كان من خلال الذين درسوا في الزوايا، أو المدارس الخاصة، أو في المشرق، أو في المغرب، أو في تونس. هؤلاء هم الذين كانوا يدرسون اللغة العربية، إما بطرق خفية، أو معلنة، ولكن بشروط، فإذا أراد شخص أن يفتح مدرسة وسمحوا له فسيكون ذلك بشروط، وهذا في إطار سياسة التضييق على تعلم اللغة العربية، ويمكن تلخيص هذه الشروط في:

«أ- اقتصار التعليم على تحفيظ القرآن لا أكثر.

«ب- عدم التعرض بأي وجه كان إلى تفسير الآيات القرآنية، وخاصة تلك التي تحض على الجهاد في سبيل الله، وتدعو إلى محاربة الظلم والاستبداد.

* سيأتي بيان ذلك في المبحث الموالي.

ب- استبعاد تدريس تاريخ الجزائر، وتاريخ العرب المسلمين، وجغرافية الجزائر والبلاد العربية.

ج- استبعاد الأدب العربي بجميع علومه، والامتناع عن تعليم المواد العلمية والرياضية». [1]

كما أن السلطة الاستعمارية – وفي إطار حربها المعلنة على اللغة العربية وعلى معلميها ومتعلميها – راحت تغلق المدارس التي تعلم العربية، وتترصد المعلمين والأساتذة والمشايخ، وتزج بهم في السجون، «**وفي هذا قال أحد الأفرنسيين بولار: لقد أحدث وجود الإفرنسيين اضطرابا بالغا بين هؤلاء المفكرين والأدباء، واضطر معظم العلماء والفقهاء إلى ترك وظائفهم التي كانوا يشغلونها، كما تشتت شمل التلاميذ الذين اضطروا إلى السعي وراء العلم في السر بعد أن كانوا يتلقونه علانية وفي حرية تامة**». [2]

ولم تكتف الإدارة الاستعمارية بهذه الأشكال من العراقيل التي من شأنها أن تعقد من وضع تعلم اللغة العربية، إذ راحت تسن قوانين ظالمة ووحشية في حق إحدى مقومات الشخصية العربية الإسلامية، ألا وهي اللغة العربية، ومنها قانون 24 ديسمبر 1904م «**والذي ينص على: عدم السماح لأي معلم مسلم أن يتولى إدارة مكتب لتعليم اللغة العربية بدون رخصة يمنحه إياها عامل الولاية – العمالة- أو قائد الفيلق العسكري، ويعد فتح مكتب بدون رخصة اعتداء على حدود القوانين الخاصة بالأهالي – المسلمين-**». [3]، وهكذا ظل الخناق يشتد أكثر فأكثر إلى أن صار تعلم اللغة العربية بحرية ضربا من الخيال، وخاصة «**بعدما أصدر وزير الداخلية – شوتان- قرارا رسميا**

---

[1] بسام العسلي: المرجع السابق، ص ص 50، 51.

[2] المرجع نفسه، ص 49.

[3] المرجع نفسه، ص 50.

في آذار مارس 1983، يمنع تعليم اللغة العربية في الجزائر، وجاء في هذا القرار: أن اللغة العربية تعتبر لغة أجنبية». [1]

ولكن وبرغم هذه القوانين الجائرة، إلا أن الجزائريين وبفضل شجاعتهم وصمودهم وتحديهم من جهة، وحبهم للغة العربية وتمسكهم بأصالتهم ومقاومتهم من أجل لغتهم ولغة دينهم من جهة ثانية؛ ظلوا متمسكين بحقهم في تعلم لغتهم ولو « **في بعض المدن والمناطق، ومن خلال ثلاث قنوات: الأولى هي المدارس القرآنية، والثانية الوعظ والإرشاد في المساجد، أما الثالثة فهي في خلق المدارس الإسلامية الثلاث التي حاولت الإدارة الفرنسية أن تجعل منها معاهد عليا للدراسات الإسلامية**»[2]، وإن كانت هذه المعاهد مختلفة تماما عن تلك التي كانت موجودة أصلا قبل الاحتلال الفرنسي و« **التي كانت مزدهرة في مختلف أنحاء القطر الجزائري».** [3]

ثانيا: ضد الدين الإسلامي.

لقد واصلت فرنسا سياستها الاستعمارية اتجاه كل ما له صلة بالحضارة العربية الإسلامية، فبعد محاربة اللغة العربية، وإضعاف قوتها بين صفوف الجزائريين، عملت هذه المرة على محاربة الدين الإسلامي، من خلال الحملة الشرسة التي شنتها ضد المساجد إما بهدمها « **وتحويلها إلى كنائس للنصارى وبيع لليهود وثكنات للجيش والشرطة واصطبلات للخيل والدواب** »[4]، وإما بالإبادة الجماعية لكل من يمارس فرائضه الدينية، وإما من خلال حملات التنصير والتبشير التي توالت على المجتمع الجزائري من شرقه إلى غربه، ومن شماله غلى جنوبه، ولو أن هذه الحملات تركزت بخاصة على

---

[1] المرجع نفسه، ص 50.

[2] عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص 204.

[3] محمد الصالح الصديق: المرجع السابق، ص 75.

[4] بسام العسلي: المرجع السابق، ص 32.

منطقة القبائل، باعتبارها منطقة خصبة في نظر فرنسا طبعا، تمكنها من نشر المسيحية وإحلالها محل الدين الإسلامي، وذلك بالقضاء على العقيدة الإسلامية وتنصير أبناء الجزائر، وهذا ما يفسر المذكرة التي أرسلها (الكردينال لافيجري) إلى الإدارة الفرنسية حيث يقول: « **علينا أن نخلص هذا الشعب ونحرره من قرآنه، وعلينا أن نعني على الأقل بالأطفال لننشئهم على مبادئ غير المبادئ التي شب عليها أجدادهم، فإن واجب فرنسا تعليمهم الإنجيل، أو طردهم إلى أقاصي الصحراء بعيدين عن العالم المتحضر**». [1]

ولهذا راح يعد العدة لذلك من خلال الحملات التبشيرية المنظمة التي شنها منذ وطئت قدماه أرض الجزائر،« **فبمجرد احتلال الجيش لمدينة الجزائر أنشأ الفرنسيون الكنسية الكاثوليكية، وحولوا بعض المساجد إلى كنائس، كما أنشأوا كنائس جديدة**» [2] ومنعوا فتح الزوايا، ومعاقبة رجال الدين، وإلحاق القضاء الإسلامي بالقضاء الفرنسي، ومنع الجزائريين من القيام بواجباتهم الدينية، وهدفهم في ذلك طبعا– هو إضعاف الدين الإسلامي في نفوس الجزائريين. وفي هذا المقام أعلن بيجو Bugeaud حاكم قسنطينة عن نوايا فرنسا الخبيثة اتجاه الإسلام من خلال تصريح خطير جاء فيه « **فإن أيام الإسلام الأخيرة قد جاءت، ولن " [يكون] في الجزائر كلها بعد عشرين عاما من إله غير المسيح**». [3]

هكذا قادت فرنسا الاستعمارية سياستها الوحشية، واللاأخلاقية، في حق الشعب الجزائري المسلم، المتمثلة في الحركات التبشيرية، بغرض تنصيره. وفي هذا الإطار

---

[1] محمد الصالح الصديق: المرجع السابق، ص 73.

[2] أبو القاسم سعد الله: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، الجزء الثاني، دار البصائر، (طبعة خاصة)، الجزائر، 2007، ص 110.

[3] نقاز سيد أحمد: الأسرة الجزائرية أثناء الاحتلال، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954،

استعانت بعديد الهيئات التبشيرية المسيحية من كل بقاع العالم، لمحاربة الدين الإسلامي الذي « **ظلت شؤونه منذ الاحتلال حتى استقلال الجزائر خاضعة للسيطرة الفرنسية**»[1] وذلك لأن فرنسا كانت تؤمن بأن الإسلام هو المحرك الرئيسي لأية انتفاضة يقودها الجزائريون في سبيل التحرر، الأمر الذي دفع بالحاكم "دوقيدون" الذي تولى الحكم بعد سقوط نابليون سنة 1870 إلى تدعيم الحركات التبشيرية وتنشيطها، كما « **عمل على تقييد حركة تنقل زعماء الطرق الدينية (...) ومنع إعطاء رخص السفر إلى البقاع المقدسة للجزائريين**»[2] حتى يمنع احتكاكهم بالمشارقة، وبالتالي لا ينتشر الوعي في أوساطهم. وقد تبنى هذه السياسة الرامية إلى « **تلقين الجزائريين أنواعا من الاستغلال والإهانة والمسخ العقائدي**»[3] كل الحكام الذين جاؤوا من بعد دوقيدون على غرار "لافيجري" La vigerie الذي أعلنها صراحة: « **لقد قضيت حياتي وأنا أحمي البعثات التبشيرية الكاثوليكية في كل بحار الأرض، ولا يمكن أن أقبل اليوم أن تضطهد على أرض فرنسية**»[4] وكذلك "شانزي" الذي عمل هو الآخر على محاربة الدين الإسلامي ورجاله من خلال فرض رقابة شديدة على المدارس الإسلامية، وعلى رجال الدين الإسلامي؛ بحيث صار تعليم القرآن أمرا غير مسموح به إلا بالخضوع إلى إجراءات كبيرة لمن يريد فتح مدرسة لهذا الغرض، كأن يحصل على موافقة من قبل الوالي، أو رئيس البلدية، بعد إجراء تحقيق دقيق حول شخصيته، وتوجهه.

ومن زاوية أخرى نجد بأن الجمعيات الدينية هي الأخرى أسهمت في محاولة تنصير المجتمع الجزائري من خلال التبشير، وخير دليل على ذلك تلك المساعدات

---

[1] عبد القادر حلوش: المرجع السابق، ص 69.

[2] المرجع نفسه، ص 70.

[3] المرجع نفسه، ص نفسها.

[4] المرجع نفسه، ص نفسها.

المالية التي قدمها الكاثوليك الفرنسيون للكاردينال "لافيجري" للمساعدة على إقامة مدارس دينية مسيحية، تقدم للجزائريين ما ينسيهم في ثقافتهم العربية الإسلامية، ويحولهم إلى الدين المسيحي، وفي هذا الإطار يصرح أحد الكاثوليك الفرنسيين«**أن سياسة التنصير هي وحدها الكافية لإدماج الجزائريين، وعملا لله سنوحد ونجمع مصالح ديننا مع مصالح الوطن**».[1]

والجدير بالذكر أن تركيز فرنسا في حملاتها التبشيرية على منطقة القبائل كان كبيرا، وذلك لأنها (فرنسا) كانت تعتقد أن سكان هذه المنطقة إنما هم قابلون للتنصير وللاندماج في المجتمع الفرنسي، على أساس أنهم ليسوا عربا، ويكرهون العرب الذين جاؤوا بالإسلام إلى هذه المنطقة من جهة، وأن أصلهم أوروبي من جهة أخرى، ولذلك فهم طيعون وسيعتنقون المسيحية بسهولة، لذلك ومن أجل ذلك سخر "لافيجري" كل إمكانياته في سبيل إنشاء مدارس دينية، وجمعيات تبشيرية في هذه المنطقة، وقد تمكن من ذلك، حيث أسس « **سنة 1873م أول مركز للمبشرين عند قبائل آيت عيسى في "تاقمونت" (...) وفي منطقة "فورناسيونال" وجماعة صهاريج بمنطقة القبائل أسس اليسوعيون المدارس الدينية لتنصير الجزائريين**»[2] لتتوالى المدارس الواحدة تلو الأخرى إلى أن وصل « **عدد مدارس الآباء البيض بمنطقة القبائل إلى 21 مدرسة تضم 1039 تلميذا، وفي سنة 1914م وصل عدد المبشرين إلى قبيلة "أودهية" بمنطقة القبائل وحدها إلى ستة آباء*، وثماني أخوات بيض**».[3]

---

[1] المرجع نفسه، ص 71.

[2] المرجع نفسه، ص 73.

* الآباء: ج الأب: الأب عند المسيحيين، الأقنوم الأقنوم الأول من الأقانيم الإلاهية والأقنوم ج أقانيم: الشخص الأصل (سريانية) ينظر: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط20، 1969، ص ص 2، 658.

[3] المرجع نفسه، ص نفسها

أما الأساليب التي كان يستعملها هؤلاء المبشرون فكانت شيطانية خالصة، بحيث كانوا يستدرجون الأطفال الصغار، باعتبارهم أرضية خصبة، تسمح لهم بنشر أفكار المسيحية داخل تلك المدارس، وهذا من خلال إظهار معاملات تبدو إنسانية في ظاهرها كتقديم المساعدات، وتوفير المتطلبات: من الغذاء، واللباس، والعلاج والملاجئ..إلخ ولكن في باطنها الخبث كامن، لأن هذه الأساليب ما هي في الحقيقة سوى تهيئة لهذا النشء حتى ينشأ على العادات الأوروبية، وحتى يستوعب الحضارة المسيحية، لأن الأسقف "لافيجري" « **كان يؤمن بأن الإحسان واللطف والإخلاص والعدالة المنصفة ثم الحمية المتبصرة واليقظة، وهي الخصال التي فرضتها علينا* العقيدة المسيحية هي القادرة وحدها على إنجاز الأعمال التي فرضت بادئ الأمر عن طريق السيف**».[1]

هذا هو أسلوب المراوغة والمخاتلة والمخادعة، الذي تبناه المبشرون في سبيل إحلال المسيحية محل الإسلام، إلى جانب أساليب أخرى لا تقل خبثا كمدح المسلمين، والتذكير بخصالهم، خصال آبائهم وأجدادهم، والإشادة بتاريخيهم وأمجادهم، وفي هذا الصدد يقول أحد الفرنسيين « **امدحوا كبراءهم، وارفعوا معنوياتهم، تلك هي وسيلة لإضفاء الذكاء على الناس وجعلهم أكثر استعدادا وقبولا لآراء الآخرين، تحدثوا للعرب عن تاريخهم وأعمالهم العلمية، وأعطوهم فكرة عمن كانوا في الماضي**».[2]

هذا ما آل إليه الحقد الصليبي ضد الإسلام، الذي أراد القضاء عليه بشتى الطرق، وهذا ما يفسر الجريمة الشنعاء التي ارتكبوها في حق المساجد التي حولوها إلى كنائس كمسجد "كتشاوة" بالعاصمة الذي حولوه إلى كنيسة القديس "فيليب".

---

* علينا (على المسيحيين)

[1] المرجع نفسه، ص 74.

[2] المرجع نفسه، ص نفسها.

المطلب الثاني: الملامح السياسية.

لقد تعرضت الجزائر عبر تاريخها الطويل والعسير إلى حملة شرسة من طرف الاحتلال الأجنبي، الذي سعى بكل الأشكال والوسائل إلى إخضاع الشعب الجزائري وإذلاله، ونهب خيراته وكل ثرواته، وممارسة أبشع أنواع الحروب النفسية والمادية عليه وذلك بغرض القضاء على كيان الأمة الجزائرية، ومقوماتها الحضارية.

ويعد الاحتلال الفرنسي للجزائر من أخطر أنواع الاحتلالات التي تعرضت لها الجزائر، وذلك لطول المدة التي مكثت خلالها فرنسا في الجزائر (من 1830 إلى 1962) من جهة، وللجرائم السياسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، التي ارتكبتها في حق الجزائريين من جهة أخرى،« **إنه احتلال استيطاني اندماجي يعتمد على وسائل الإكراه والقوة**»[1]، ولكن الحقيقة التاريخية تسجل للشعب الجزائري حسن تعامله مع هذا الوضع الصعب، حيث تمكن من الصمود والوقوف في وجه أعتى قوة إمبريالية في ذلك الوقت برغم ضعفه المادي، حيث لم يكن يملك من وسائل الدفاع سوى تسلحه بقوة الإرادة، وعنفوان الذات، والرغبة الكبيرة في العيش الكريم في كنف الحرية والانعتاق. لذلك « **وجدت فرنسا نفسها وجها لوجه أمام مجتمع حسن التنظيم، له حضارته الخاصة**»[2] وقد برهن على ذلك من خلال سياسة الرفض التي تبناها منذ وطئت أقدام الفرنسيين أرضه، حيث استبسل استبسالا قويا في فنون المقاومة والقتال التي قادها وطنيون غيورون على وطنهم، مسلحون بقوة الإيمان، من أمثال الأمير عبد القادر الجزائري، وفاطمة لالا

[1] عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 48.

[2] مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع، تر: حنفي بن عيسى، دار القصبة، الجزائر، 2007، ص 21.

نسومر والمقراني، وبوعمامة، والحداد وغيرهم كثيرون منهم « **معروفون وآخرون غير معروفين، حيث هناك أشخاص قاوموا وهم مجهولون**».[1]

لقد اتخذ هؤلاء الرجال من تلك الأسلحة التقليدية البسيطة التي ما كانوا يملكون سواها- وسائل لمجابهة أعتى قوة استدمارية آنذاك من أجل الحفاظ على أرضهم، ووطنهم، مدفوعين بالروح الوطنية العالية« **ويمكن اعتبار المقاومة الشعبية المسلحة هي بداية تبلور ونضج الوعي الوطني لدى الجزائريين (...) وقد كان الوازع الديني هو الدافع القوي لمختلف المقاومات الشعبية المسلحة**».[2]

ولكن رغم ذلك إلا أن هذه المقاومات الشعبية قد فشلت – رغم ما حققته من نجاحات – في إلحاق الهزيمة بالدولة الفرنسية، وإخراج المستعمر من أرض الجزائر وذلك لغياب عنصر التنظيم، وضعف الإستراتيجية العسكرية، وكذلك افتقاد هذه المقاومات للبعد الوطني؛ بحيث كانت كل منطقة تقود المقاومة بمفردها دون التنسيق مع مناطق أخرى، فهي « **مجرد زوابع تثيرها بعض القبائل من حين لآخر**»[3]، ما سهل على المستعمر القضاء عليها بسرعة وبأقل الخسائر، بالإضافة إلى اعتمادها على قادة يفتقدون كثيرا إلى الخطط والإستراتيجيات العسكرية [4] فإن هم ذهبت حياتهم ذهبوا.

أما على صعيد النجاحات التي أشرت إليها سابقا، فإن هذه المقاومات استطاعت أن تحافظ على مقومات الأمة الجزائرية وكيانها، وألغت تماما الأطروحة الفرنسية القائلة

---

[1] إبراهيم مياسي: مقاربات في تاريخ الجزائر (1830- 1962م)، دار هوة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2011، ص 11.

[2] ينظر عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 68.

[3] غي برفيليي: النخبة الجزائرية الفرانكوفونية (1830 – 1962)، تر: م حاج مسعود وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007، ص 45.

[4] ينظر عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 68.

«**أن فرنسا تحتل الجزائر بدون مقاومة مسلحة**»[1] كما فضحت فرنسا التي كانت تدعي بأنها جاءت إلى الجزائر من أجل تحضير الجزائريين، الأمر الذي أدى إلى انتشار الوعي، وتبلور النضج الفكري لدى الجزائريين الذين «**تبنوا خيار الحركة الوطنية السياسية كبديل عن الحركة الوطنية المسلحة** ».[2]

أولا: ظهور الأحزاب السياسية.

بعد فشل المقاومات الشعبية المسلحة التي خاضها الشعب الجزائري ضد العدو والذي «**قدم قوافل عديدة من الشهداء** »[3] اضطر إلى تغيير إستراتيجية المقاومة لعله يفلح فيما عجز عنه طوال سبعين سنة (1830- 1900) فلجأ إلى الوسائل السلمية في إطار ما يسمى بالنضال السياسي في إطار الحركة الوطنية * وهذا من قبل فئة النخبة وهي فئة من الشعب تمكنت من بلوغ درجة عالية من الوعي الفكري- وإن اختلفت في الآراء والتوجهات- والمحافظة على هويتها، وعلى مقوماتها ، كما تلتقي في حبها للوطن، والتضحية من أجله لأنه يمثل العزة والشرف والكرامة لكل جزائري وجزائرية، مع الإشارة هنا إلى أن بعضا من النخبة هذه كانوا يدعون إلى سياسة الإدماج.**

---

[1] المرجع نفسه، ص 95.

[2] المرجع نفسه، ص 101.

[3] إبراهيم مياسي: المرجع السابق ص 228.

*الحركة الوطنية: بدأت تتبلور وتتشكل في بداية القرن العشرين مع بروز العمل السياسي كبديل عن العمل العسكري، لكنها عرفت طفرة نوعية مع يقظة الأمير خالد حفيد الأمير عبد القادر، بداية من سنة 1913، عندما قاد حركة الشباب الجزائري، ووصلت إلى ذروتها عام 1919، وهو التاريخ الذي بعث فيه رسالة إلى عصبة الأمم يكشف فيها الممارسات اللاإنسانية للاحتلال الفرنسي في الجزائر، وتمخض عن هذه اليقظة السياسية للنخبة الجزائرية بقيادة الأمير خالد تأسيس أول حزب سياسي جزائري "نجم شمال إفريقيا"، الذي قاد الحركة الوطنية إلى ثورة أول نوفمبر 1954، والتي توجت بالاستقلال الوطني في 5 جويلية 1962. ينظر. عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 99.

** سيأتي بيان ذلك في الصفحة81.

بدأت المقاومة السياسية مع بداية العقد الثاني من القرن العشرين (حوالي سنة 1912م) وهي الفترة التي شهدت ميلاد الأحزاب السياسية « **حيث تركزت مطالب النخبة على المساواة في الحقوق السياسية مع الفرنسيين وإلغاء قانون "الأنديجينا"**»[1] كما عملوا على إعادة إحياء الإرث الحضاري والفكري للأمة الجزائرية، التي تعرضت للمسخ والطمس. ويمكن إرجاع هذا التحول في طريقة النضال والمقاومة من المقاومة المسلحة إلى المقاومة السلمية إلى أسباب عديدة أهمها:

أ- ظهور نخبة مثقفة من الجزائريين استطاعت أن تفهم الواقع الجزائري، وأن تعي الخطر الذي شكله التواجد الاستعماري على الأمة الجزائرية، ومدى قدرته على تحطيم كامل أركان المجتمع، الفكرية، والثقافية، والاجتماعية، والحضارية، أذكر من هؤلاء فرحات عباس، مصالي الحاج، عبد الحميد بن باديس، وغيرهم، كما أيقن هؤلاء بأن الكفاح المسلح أضحى غير مجد، في ظل انعدام التوازن بين الطرفين المتقاتلين: الطرف الفرنسي المدجج بأحدث الأسلحة الفتاكة، ضد الطرف الجزائري الذي يعتمد على السيف، والحجر، والفأس، والبندقية في أحسن الأحوال.

ب- بروز الصحافة الوطنية المناضلة التي كانت بمثابة منابر إعلامية تدعو إلى المقاومة السلمية شأنها في ذلك شأن « **النوادي الثقافية وكذا الأحزاب السياسية والجمعيات باعتماد أسلوب الحوار والتفاوض من أجل الوصول إلى تحقيق الحل السياسي**»[2] وخاصة بعد تمكن بعض المجلات، والصحف العربية ذات التوجه الإصلاحي، من الوصول إلى الجزائر، رغم الحضر الذي تمارسه عليها السلطات الاستعمارية على غرار « **المنار- التي كانت لسان حال الحركة العبدونية (نسبة لمحمد عبده)، وكان لها صدى واسع في الجزائر، لأنها كانت بمثابة مدرسة إصلاحية متنقلة،**

---

[2] عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 103.

تنشر الفكر المستنير والوعي الثاقب، وتكشف نوايا الأعداء»[1] بالإضافة إلى "العروة الوثقى" التي يساهم في إصدارها محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، اللذان يدعوان فيها إلى ضرورة التمسك بكتاب الله وسنة رسوله.

ت- تأثر المجتمع الجزائري – فكريا- بأفكار جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وقد تأكد هذا خلال زيارة هذا الأخير – محمد عبده- إلى الجزائر عام 1903، وقيامه بإلقاء دروس وخطب ومحاضرات، ما أدى إلى « **انتعاش الحركة الفكرية الإسلامية في الجزائر، وقد خلفت هذه الزيارة آثارا طيبة في نفوس الناس وخاصة عند علماء الجزائر**».[2]

ث- هجرة الكثير من الجزائريين سواء إلى المشرق العربي أو حتى إلى فرنسا، وما نتج عنه من زيادة مستوى الوعي لدى هؤلاء المهاجرين، بضرورة النضال السياسي في سبيل تحقيق كامل المطالب المشروعة للشعب الجزائري، الذي عانى من أبشع أنواع الظلم. هذه العوامل وغيرها « **كان لها دور كبير في إثارة الوعي لدى الجزائريين وكان لها أهمية بالغة في حركة استرجاع الشخصية الوطنية والهوية القومية وأثارت قضية هامة تتعلق بمستقبل الشعب الجزائري**»[3] هل يقبل بفكرة الإدماج التي دعا إليها عدد غير قليل من الفرنسيين، وأيدهم في ذلك بعض الجزائريين؟ أم يقنع بالحكم الذاتي من خلال الحصول على بعض الامتيازات من الحكومة الفرنسية؟ أم يسعى إلى تحقيق الاستقلال التام؟

---

[1] إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 229.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] محمد طهاري: الشيخ عبد الحميد بن باديس (الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر)، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص 10.

وقد تجلى ذلك من خلال الخطاب الإيديولوجي الذي تبناه الجزائريون خلال المطالبة بحقوقهم، والذي اختلف من فئة إلى أخرى، كما سأوضح.

ثانيا: تنوع الخطاب الإيديولوجي الجزائري.

يعتبر الخطاب الإيديولوجي الجزائري أداة غاية في الأهمية، لدراسة وفهم واقع الجزائر، ماضيها، وحاضرها، وخاصة إذا تعلق الأمر بالمقاومة، وبالثورة، وبكل ما له صلة بالجوانب الثقافية، والاجتماعية، والسياسية لحياة الجزائريين، التي تأثرت تأثرا كبيرا بالتواجد الاستعماري على أراضيها وما ترتب عنه من مآس .

وإذا نظرنا إلى تاريخ الجزائر، وانتمائها الديني والحضاري، فإننا لا نتفاجأ إذا وجدنا بأن الخطاب التقليدي يعتبر أول خطاب سلكه الجزائريون كأداة من أدوات المقاومة للحفاظ على المقومات الاجتماعية، والثقافية، للمجتمع الجزائري «**ويأتي بعده الخطاب الاندماجي نتيجة الغزو الاستعماري، وإنشاء المدارس الفرنسية، والسماح لبعض الجزائريين بمزاولة التعليم فيها، أما الخطاب الوطني فيكون ردا على الخطاب الاندماجي**»[1] الذي يدعو إلى « **المطالبة بمساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق السياسية والثقافية والاجتماعية، أي باعتبار الإدماج مرحلة أولى من مراحل تحرير الشعب في نهاية الأمر، وأغلب أعضاء هذه الحركة هم من المثقفين بالثقافة الفرنسية**».[2]

1- الخطاب التقليدي.

يعتبر الخطاب التقليدي أقدم الخطابات التي استعملها الجزائريون في مواجهة الوضع السياسي، والاجتماعي الصعب، الذي عرفته الجزائر بسبب الاحتلال الفرنسي

---

[1] إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 257.

[2] محمد طهاري: المرجع السابق، ص 11.

الإمبريالي، الذي أعلن منذ الوهلة الأولى عن نواياه السيئة، التي ترمي إلى القضاء على كل مقومات الشخصية الوطنية للجزائريين، باعتبار الجزائر بلدا مسلما توارث الإسلام جيلا عن جيل«**والمعطيات التاريخية تمكننا من القول أن الخطاب التقليدي قد مر بعدة أشكال يمكن حصرها في شكلين هما: أولا: الخطاب الطرقي*، ثانيا الخطاب الإصلاحي**».[1]

أ- أما الخطاب الطرقي فيتمثل في أولئك الرجال النخبة، الذين اتخذوا من الزوايا منطلقا لتدارس الدين، واللغة العربية، والدعوة إلى مقاومة الاستعمار. ومن أهم هذه الطرق، الطريقة القادرية، الطريقة الرحمانية... وغيرهما.

« **وقد لعب هذا الاتجاه دورا إيجابيا طيلة القرن 19م، حيث حمل لواء مقاومة الاستعمار الفرنسي بداية من الأمير عبد القادر ونهاية بالشيخ بوعمامة**»[2] ولكنه ورغم بعض النجاحات التي حققها، من خلال تأثيره في نفوس الجزائريين، عن طريق نشر الكثير من الأفكار الدينية، والفلسفية الرامية إلى توعية الشعب الجزائري، ومحاربة الجهل والأمية، وتعليمه مبادئ الدين الإسلامي الحنيف، الذي أرست قواعده الدولة العثمانية، إلا أن نفوذه بدأ يضعف شيئا فشيئا، وذلك لأسباب خارجية ممثلة بذلك الحصار المشدد، الذي ضربته فرنسا على هذه الطرق والزوايا، من خلال الدراسات المعمقة التي أجرتها عليها، والتي كانت ترمي إلى إضعافها بعد تحريفها عن المسار الصحيح الذي وضعت

---

*يطلق لفظ الطرقية عندنا في الجزائر على فئات تنتسب إلى التصوف، لها أدوار وأذكار مخصوصة، تواظب على قراءتها، وآداب وأخلاق تلتزم السير عليها، ولبعضهم زوايا تحفظ القرآن الكريم، وتعلم التوحيد، ومبادئ الفقه الإسلامي، ومبادئ العربية. عبد الرحمان شيبان: مقدمة مجلة الشهاب (أنشأها الإمام عبد الحميد بن باديس)، دار المعرفة، الجزائر، 2009، ص 78.

[1] إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 258.

[2] رابح لونسي: التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف (192 – 1954)، دار كوكب العلوم، الجزائر، ط2، 2012، ص 77.

فيه أول مرة. وهكذا تمكنت فرنسا من جعل بعض هذه الطرق « **بعد حين من الدهر أداة طيعة في يد الإدارة الاستعمارية، والحرس الأمين على المصالح الفرنسية**»[1] التي تمكنت من تحويل المسار الذي رسمته هذه الزوايا والطرق في بداية الأمر، حيث تحولت من توعية الشعب الجزائري، وتعليمه دينه الحنيف، وغرس روح المقاومة في نفسه لمواجهة الاستعمار، إلى أداة لنشر البدع والخرافات والدروشة في المجتمع الجزائري، وذاك ما كان يسعى إليه الاستعمار الفرنسي، لأنه يخدم مصالحه، ويحقق أهدافه، حيث « **انتقل الكثير من الطرقيين ورجال الدين والزوايا من مقاومين للاستعمار إلى خادمين له بعدة أشكال وأساليب**»[2] الأمر الذي جعل الكثير من الناس يبتعدون عن الإسلام، وهذا ما دفع بالبشير الإبراهيمي إلى اتهام أولئك الطرقيين بالتسبب في نشر المسيحية والإلحاد في أوساط الجزائريين حيث يقول: «**أن من الأسباب التي مكنت الإلحاد في نفوس الشبان المتعلمين مجانبة علماء الدين الجامدين ونفورهم منه**»[3] هذا ما جعل هذه الطرق الصوفية تكتسب سمعة سيئة لدى الكثير من الجزائريين، بعدما لاحظوا أنها تتصف بكثير من السلبيات، وتقع في كثير من الانحرافات التي تتنافى ومبادئ الدين الإسلامي، الأمر الذي مهد الطريق لبروز شكل ثان من أشكال الخطاب التقليدي، ألا وهو الخطاب الإصلاحي.

ب- وأما الخطاب الإصلاحي فجاء كرد فعل على الخطاب التقليدي، الذي أثبت فشله في تحقيقه أهدافه، التي رسمها في البداية، والمتمثلة في مقاومة الاستعمار الفرنسي، وهذا بعدما نجح الاستعمار الفرنسي في إضعاف تلك الطرق الصوفية وتحريفها عن مسارها الحقيقي. فبعدما « **شعر العلماء المسلمون بخطر نفوذ وسلطة رجال الطرق**

---

[1] عبد الرحمن شيبان: المرجع السابق، ص 79.

[2] رابح لونيسي: محاضرات وأبحاث في تاريخ الثورة الجزائرية، دار كوكب العلوم، الجزائر، ط1، 2011، ص 89.

[3] المرجع نفسه، ص نفسها.

الصوفية على الشعب، وعملهم على استغلاله والتمويه عليه باسم الدين، قرروا محاربة البدعة وكانوا من المتأثرين بتعاليم ابن تيمية، ومن تلاميذ الشيخ محمد عبده، ورشيد رضا...»[1] وقد قاد هذا التيار الإصلاحي الشيخ عبد الحميد بن باديس، الذي تصدى للخرافات والبدع، التي انتشرت في الجزائر، على أيدي الطرقيين بتشجيع من الفرنسيين؛ حيث كرس حياته العلمية والعملية في سبيل نشر تعاليم الدين الصحيح الذي يحمي العقيدة من التضليل، ويخلص عقول الجزائريين من كل الاعتقادات الخاطئة، والأوهام التي تؤمن بـ« **المقدر والمكتوب، وأشكال كثيرة من الشعوذة والدجل**»[2] وتدعوهم إلى فهم الإسلام فهما صحيحا. وهذا هو الشعار الذي جاءت به جمعية العلماء المسلمين التي تأسست سنة 1931 على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس، حيث كانت تدعو إلى إصلاح حال المجتمع الجزائري، وتحارب الجهل والأمية اللذين تفشيا فيه، من خلال الدروس التي كان يلقيها رئيس الجمعية عبد الحميد بن باديس على تلامذته من جهة، والمقالات التي كان ينشرها في جرائد الجمعية من جهة أخرى، كجريدة الشهاب، والبصائر، هاتان الجريدتان اللتان لعبتا الدور الكبير في نشر أفكار جمعية العلماء الإصلاحية، الداعية إلى تكوين فرد جزائري يؤمن بالقضية الجزائرية.

2- الخطاب الاندماجي.

لقد كان للتواجد الاستعماري في الجزائر، وما أفرزه هذا التواجد من سيطرة اللغة الفرنسية على اللغة العربية، وتراجع دور هذه الأخيرة في تنوير العقول، وانكماش الثقافة الإسلامية بصفة عامة الدور الكبير في تكون نخبة جزائرية، تكونت وتخرجت من مدارس فرنسية، أرادها الفرنسيون أن تكون همزة وصل بين الإدارة الاستعمارية والأهالي. ولذلك

---

[1] عبد العزيز شرف: المرجع السابق، ص 38.

[2] إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 258.

يعتبر ظهور دعاة الإدماج من الجزائريين الذين تلقوا تكوينا فرنسيا لائكيا يتنافى تماما والثقافة الإسلامية، كنتيجة حتمية للسياسة الفرنسية التي تبنتها في الجزائر.

إن دعاة الإدماج ظلوا يؤمنون بالخرافة الفرنسية، التي تزعم بأن الجزائر ما هي إلا قطعة من فرنسا، انفصلت عنها بواسطة البحر الأبيض المتوسط، كما انفصلت أطراف باريس عن بعضها، بواسطة نهر السين.

كما آمنوا « **بفكرة التجنس كوسيلة وحيدة لإنقاذ الإنسان الجزائري من الجهل والأمية والتخلف من جهة، والحصول على الحقوق المدنية من جهة ثانية** »[1] فما على الجزائريين إلا أن يقتنعوا بأن فرنسا هي خلاصهم الوحيد مما هم فيه من تخلف، ومن جهل وأمية، وأنها هي التي ستمنح لهم حق المواطنة، وربما هذا ما جعل عدد المجنسين يزداد « **زيادة محسوسة بعد سنة 1919 وأصبح يتراوح ما بين 100 إلى 200 سنة 1930 إلى 1939**»[2] وهكذا فقد تأثرت هذه النخبة بالفكرة القومية الفرنسية التي آمن بها "ارنست رينان" ودعا إليها، وهي « **الرغبة في العيش المشترك وهي العامل الرئيسي في تشكل أية أمة** »[3]

وقد ظهر هذا التأثر لدى بعض المثقفين خريجي المدارس الفرنسية من أمثال رابح زناتي، وكذلك عبد القادر حاج محو، وهو أول جزائري يكتب رواية باللغة الفرنسية، الذي صرح عن رغبته في الاندماج بالقول: « **إنني أحلم بقيام جزائر فرنسية إلى الأبد (...) أنا من أنصار المساواة والقانون العام بصفة مطلقة، وليكن ذلك لفائدة نخبتنا في انتظار ميلاد الجزائر كمنطقة فرنسية شاملة وكاملة(...) لا يتعارض الإسلام مع هذا في شيء، ولا يطرح أي حاجز أمام فرنستنا لأنه دين يحث على التطور لا على الجمود**

---

[1] المرجع نفسه، ص 259.

[2] غي بيرفيليي: المرجع السابق، ص 411.

[3] رابح لونيسي: التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف (1920- 1954)، ص 354.

»[1] وتبعه س. فاسي مؤسس صوت الضعفاء في هذا الطرح حيث يقول: « **من الواضح أن مفهوم الجامعة الإسلامية غير موجود في الجزائر، وأن الأهالي لا يعارضون السيادة الفرنسية، ولا يحاولون التملص منها(...) إن الأهالي أوفياء لفرنسا بشكل كامل ونهائي**»[2] أما رابح زناتي فقد ذهب بعيدا في هذه الدعوة، حيث راح يدعو المثقفين الأهالي إلى ضرورة الرضوخ وقبول الأمر الواقع، وهذا حينما قال بشأن الأهالي المثقفين «**إن طريقهم مسطر بوضوح فما عليهم إلا أن يتطوروا في الإطار الوطني، وأن يقتربوا قدر الإمكان من أسيادهم الفرنسيين، فليتحلوا بالثقة، وليذهبوا مباشرة نحو الهدف المقصود ألا وهو فرنستهم بصفة شاملة** »[3]. إن هذا الاقتراب الذي يدعو إليه رابح زناتي، ربما أراد من خلاله هؤلاء المثقفون أن يردوا به جميل فرنسا– في نظرهم– التي ينظرون إليها نظرة الولد لأمه التي تولت إرضاعه، واجتهدت في تربيته، فما كان عليهم إلا الاعتراف بالجميل، وهذا ما نلمسه لدى بن حبيلس شريف في كتابه "الجزائر الفرنسية" من منظور أحد الأهالي الذي نشر سنة 1914م والذي يعتبره صاحبه بمثابة عربون محبة من أحد الأهالي لفرنسا العزيزة! يصور فيه عشقه الكبير لكل ما له صلة بفرنسا وبالفرنسية، وأكثر من ذلك أنه راح « **يستعرض المنجزات الفرنسية في الجزائر، ويكيل لها المديح بسخاء، ولقد تمكنت فرنسا من إحلال الأمن في بلد عكرته النزاعات الأهلية وسطت عليه العصابات (...) إن تدعيم الهدوء والاستقرار، وتوسيع رقعته معناه العمل بثبات لتحقيق إدماج إخواننا**»![4] وهنا وإزاء هذا الموقف الذي اتخذه شريف بن حبيلس حول ضرورة اندماج الجزائر مع فرنسا، يحق لي كجزائري أطلع على تاريخ الجزائر قبل أن أكون باحثا أن أتساءل حول الأسباب التي جعلت هذا الرجل يفرط إفراطا شديدا في

---

[1] غي بيرفيليي: المرجع السابق، ص 412.

[2] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[3] المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المرجع نفسه، ص 316.

مدح الاستعمار الفرنسي، والثناء عليه، في الوقت الذي يعترف فيه العالم برمته، بل الفرنسيون أنفسهم وبخاصة النزهاء منهم بالجرائم البشرية الكبيرة التي ارتكبها هذا الاستعمار البشع الذي دمر وخرب وشتت ونكل، ورمل، وهجر، بل وقضى على كامل أركان وثوابت الأمة الجزائرية، ويكفي أن نذكر مجاز الثامن من مايو سنة 1945م كشاهد على المجازر الفرنسية في الجزائر.

ولكن إذا سلمنا بأن فرنسا قد منحت بعض الامتيازات لثلة من الجزائريين كمنح فرص التعليم* لبعض الجزائريين ليكونوا عين فرنسا في الجزائر من جهة، ولتظهر فرنسا للعالم بأنها أمة متحضرة، ومحضرة للمجتمع الجزائري.

إذا نظرنا إلى القضية من هذه الزاوية قد نعذر هذه النخبة في موقفها الذي اتخذته إزاء الاستعمار، والتي غلبت المصلحة الشخصية على مصلحة الوطن، كما فعل فرحات عباس أحد أهم دعاة الإدماج الذي « **يكون قد سلم في سنة 1935 بأن لم يعد ثمة حل في هذا البلد سوى الاندماج وذوبان العنصر الأهلي في المجتمع الفرنسي، وإذا استحال تحقيق التجنيس في إطار القانون الخاص، فإن الأهالي المتطورين سوف يخضعون للقانون العام، وسوف يرضون بالجنسية وبالتخلي عن قانون الأحوال الشخصية الخاص بهم**»[1]

كما أن فرحات عباس في هذا الإطار لا يرى مانعا في تحويل الجزائري المسلم إلى فرنسي، لذلك دعا في أكثر من مرة إلى ضرورة نبذ الخلافات بين الأهالي والمستعمر الفرنسي، وخاصة الخلافات ذات البعد الديني، حيث يرى في هذا الصدد « **بأن التمايز**

* كان الهدف من تأسيس المدارس الحكومية الفرنسية هو تكوين فئة معينة من الموظفين في الإدارات الفرنسية من جهة، ومنع التحاق الجزائريين بالتعليم العربي الإسلامي من جهة ثانية، وذلك قصد ربطهم دائما بفرنسا، عبد القادر حلوش، المرجع السابق، ص 40.

[1] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

الديني لا يوجد في كتابنا المقدس، كما لا يوجد أي أمر يمنع المسلم الجزائري من أن يكون فرنسيا على صعيد الانتماء القومي».[1]

بناء على هذا الطرح، وهذا التوجه ظهر خطاب آخر يدعو إلى التمسك بالثوابت الوطنية، ويرفض أي شكل من أشكال الاندماج، وهو الخطاب الوطني الإصلاحي.

3- الخطاب الوطني (الإصلاحي).

لقد برز الخطاب الوطني الإصلاحي كرد فعل على السياسة الفرنسية المبنية على الهيمنة، والقمع بغرض الوصول إلى الاندماج الثقافي للمجتمع الجزائري، والذي يقضي في النهاية إلى التغريب والطمس لكل ماله صلة بالثقافة، وبالشخصية للإنسان الجزائري المسلم، الوفي لعاداته وتقاليده اللغوية، والدنية، والاجتماعية...كما كان هذا الخطاب بمثابة جواب صريح من طرف مجموعة من المثقفين الجزائريين ثقافة شرقية على أولئك المثقفين المفرنسين الداعين للإدماج؛ فهاهو الشيخ عبد الحميد بن باديس يعبر عن رأي أغلبية الجزائريين المتمسكين بشخصيتهم وذلك في مقال صدر سنة 1936 يقول فيه: **«هذه الأمة الجزائرية المسلمة لا يمكن أن تكون فرنسا، ولا ترغب في أن تكون فرنسا؛ بل هي أمة بعيدة كل البعد عن فرنسا بلغتها وطبائعها وأصولها ودينها، وهي لا تطالب بأي نوع من الإدماج»**[2] إذن فالخطاب الوطني الإصلاحي لا يؤمن تماما بفرنسا وبثقافتها الغريبة عن المجتمع الجزائري، والتي أرادت تصديرها إليه بالقوة.

وقد كان لاحتكاك المثقفين الجزائريين بنظرائهم من المشرق العربي، وظهور الصحافة الدور الكبير في نشر الوعي الفكري في أوساط هؤلاء المثقفين، الذين رفعوا شعار الرفض والممانعة، ولعل من هؤلاء حمدان لونيسي، وعبد القادر المجاوي،

---

[1] رابح لونيسي: التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف (1920 – 1945م)، ص 354.

[2] غي برفيليي: المرجع السابق، ص 145.

ومطصفى بن خوجة، وعبد الحليم بن سماية، بالإضافة إلى محمد البشير الإبراهيمي، والشيخ عبد الحميد بن باديس، هذا الأخير الذي كان له الدور الكبير في تأسيس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين سنة 1931، هذه الجمعية التي كان لها الدور الأكبر في نهضة المجتمع الجزائري، فكريا، وروحيا، واجتماعيا، وحتى سياسيا، وذلك من خلال تكوين شخصية مناهضة للاستعمار، رافضة لكل شكل من أشكال العبودية والاضطهاد.*

المطلب الثالث: الملامح الثقافية:

أولا: تشكيل النوادي والجمعيات الثقافية:

إن الوعي السياسي، والثقافي، والاجتماعي، الذي تشكل في الجزائر مع مطلع القرن العشرين، وبالخصوص في الفترة الممتدة من سنة 1900 إلى سنة 1930 كان نتيجة لظهور كثير من النوادي الأدبية، والجمعيات الثقافية، التي أسهم في إنشائها مجموعة من الرجال الذين أيقنوا بأن حال الجزائر قد آل إلى وضعية سيئة وجب إصلاحها، لذلك فقد شكلت هذه النوادي والجمعيات « **المنابع الفكرية والنواة السياسية الأولى للحركة الوطنية**»[1] كما كان لها الدور البارز والإيجابي في توجيه الشباب الجزائري، وبناء قاعدته الفكرية المتينة، التي تفرض عليه حب الوطن والدفاع عن مقوماته الأساسية من خلال مجابهة الاستعمار، ومنعه من نشر ثقافته الهدامة.

إن هذه النوادي والجمعيات الوطنية عبارة عن مقرات يلتقي فيها أبناء الجزائر ليتلقوا من خلال النشاطات الثقافية التي تقدم فيها ما يبصرهم بحالهم، وحال وطنهم، لذلك « **كانت هذه المراكز تؤدي وظيفة المدرسة والتربية والتوجيه، وكانت عبارة عن خلوة**

* سأوضح أكثر الأدوار التي لعبتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مقاومة الاستعمار في المطلب الثالث.

[1] عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 104.

للأحاديث السرية والخطيرة والسياسية، وملتقى اجتماعي ورياضي....»[1]، وقد لعبت هذه النوادي والجمعيات دورا هاما في نهضة الجزائر ويقظتها وتطورها، وذلك « **بالتركيز على التعليم والتقدم والتحرر**».[2]

ومن أهم هذه الجمعيات والنوادي أذكر:

أ- **الجمعية الراشدية (1902م):** مقرها العاصمة، أسسها المسمى ساروي من أجل مساعدة التلاميذ الذين درسوا في المدارس الفرنسية المخصصة لـ" الأنديجان".

ب- نادي صالح باي (1908م): مقره قسنطينة، يرمي إلى تثقيف المسلمين والارتقاء بالمجتمع الجزائري.

ج- نادي التوفيقية: (1908م): مقرها العاصمة، تهتم بالقضايا الثقافية ومحاولة التوفيق بين الجزائريين الأهالي والمستوطنين.

ث- نادي الشباب الجزائري (1909م): مقره تلمسان.

ج- نادي الترقي (1927م): تأسس بالجزائر العاصمة، كما تحول في عام 1931م إلى مقر جمعية العلماء المسلمين.

بالإضافة إلى هذه النوادي والجمعيات الثقافية، هناك نوادي أخرى مثل شباب تلمسان، نادي الصدقية، نادي التقدم بعنابة، المؤسسة الإسلامية القسنطينية. [3]

د- ولكن تبقى جمعية العلماء المسلمين الجزائريين أهم وأشهر هذه الجمعيات حيث قال عنها الأستاذ محمد الطيب العلوي « **إذن فإنشاء جمعية العلماء المسلمين كان في**

---

[1] إبراهيم مياسي: المرجع السابق، ص 239.

[2] المرجع نفسه، ص 240.

[3] ينظر عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص ص 104، 105.

الوقت المناسب، وكان ضرورة قصوى تقتضيها الظروف والتحديات»[1]، فكانت بذلك بمثابة الحصن المنيع للمجتمع الجزائري من الضياع والتيه الفكري، والاضمحلال الثقافي، والفساد الخلقي، من خلال الجهود التربوية، والأفكار الإصلاحية التي تبنتها عند بداية تأسيسها في مطلع الثلاثينات من القرن الماضي، والتي كانت ترمي إلى ترسيخ المقومات الشخصية للمجتمع الجزائري، وحماية هذا المجتمع من التغريب والتحريف، لهذا رفعت شعارها في وجه الاستعمار الفرنسي! الإسلام ديننا، والعربية لغتنا، والجزائر وطننا.

تأسست هذه الجمعية في سنة 1931 على يد الشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس، بمساعدة بعض رفاق المقاومة الثقافية، الذين أحيوا عروبة الجزائر بعد مماتها، وأنقذوا الدين بعد تحريفه، ونهضوا بالأمة بعد إضعافها.

« **لقد أنشئت في جو التأثر بالثقافة الفرنسية** »[2] حاملة أفكار مناهضة للفرنسة، وللتجنيس، وللإدماج، وما إلى ذلك مما يغرب المجتمع الجزائري ويبعده عن دينه وعن لغته، وعن كامل عقيدته، وقد تجسدت الأفكار التي جاءت بها من خلال الجهود التي بذلتها في:

1- في المجال الديني:

انصب نشاط الجمعية في المجال الديني على الدعوة إلى العمل بكتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، لذلك سعت إلى ترسيخ مبادئ وتعاليم الدين الإسلامي الصحيح، المبني على التربية الإسلامية الصحيحة، لا على الشعوذة والدجل والخرافات التي نشرها الطرقيون بإيعاز وتشجيع من السلطة الاستعمارية، لهذا حاربوا الطرقية بكل أنواعها، لأنها مصدر تلك الأفكار الخاطئة الهدامة، كما بنوا المساجد وفتحوا

---

[1] إبراهيم لقمان، المرجع السابق، ص

[2] عبد الرحمن شيبان: المرجع السابق، ص 59.

الزوايا، والكتاتيب، والمدارس الإسلامية، لتربية النشء، وتعليمه مبادئ الدين الصحيح، من خلال تقديم دروس في العبادات والمعاملات، بالإضافة إلى محاربة الإلحاد، ومواجهة الصليبية، واليهودية والدعوة إلى «**الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين**»[1] من خلال تقريبهم بين السنة والشيعة من جهة، وبين العرب والأمازيغ من جهة أخرى. هذا وقد لعب الشيخ عبد الحميد بن باديس دورا رئيسيا في هذا المجال بالإضافة إلى أصدقائه ورفاقه في الكفاح والمقاومة، مثل محمد البشير الإبراهيمي، والتبسي، والعقبي وغيرهم كثر.

2- في المجال التربوي (التعليمي):

لقد تفطن أعضاء جمعية العملاء المسلمين عموما، وابن باديس خصوصا منذ البداية إلى الخطر الذي أحدق بالأمة الجزائرية، والمتمثل في محاولة فرنسا فرنسة الجزائريين من خلال تجنيسهم وتنصيرهم، ومن ثمة القضاء على لغتهم العربية، لذلك اقتنعوا أيما اقتناع، بأنه لابد من الاهتمام بالتربية والتعليم في سبيل النهوض بالمجتمع ثقافيا، وسياسيا، واجتماعيا... ومن ثمة «**هدم ما دخل إلى العقل الجزائري من أفكار تدفعه للقبول بالإدماج في الحضارة الغربية**»[2] وقد استوحت الجمعية أسس التربية الصحيحة التي اتبعتها من حنايا الدين الإسلامي؛ أي من القرآن الكريم الذي عمل على ترسيخ القيم الفاضلة في الفرد الجزائري، الذي كان محل اهتمامها، إذ ترى بأن صلاح الفرد هو أساس صلاح المجتمع، لذلك سعت إلى إصلاح الوضع التعليمي بالجزائر «**مع إدخال تغييرات منهجية في بنية المؤسسات التربوية من ناحية البرامج والأساتذة والمراكز، لكي تستطيع التربية الإسلامية الحديثة التكيف مع وطن يئن تحت وطأة الاحتلال، وتصل إلى نهضة جديدة قابلة لمواجهة غرب متقدم عليها في كل**

---

[1] محمد طهاري: المرجع السابق، ص 17.

[2] المرجع السابق، ص 17.

الميادين»[1]، ولن يتأتى ذلك –حسب ابن باديس ورفاقه – إلا بإعداد خطة متكاملة تجعل التعليم أولى أولوياتها، وهذا ما قام به شيوخ الجمعية؛ حيث انشغلوا بتعليم الكبار والصغار، سواء في المساجد، أم في المدارس، وذلك بالمجان. لقد عملت الجمعية على تكوين نشء متشبع بروح الثقافة العربية الإسلامية، متسلح بالإرادة والشجاعة والإيمان الصادق، الذي يدفع هذا النشء إلى الصمود، والتحدي، ومجابهة الغزو والاستعمار بكل أشكاله، لذلك نجد ابن باديس قد «**بدأ يعلم الناس ويرشدهم، ويبث الوعي في النفوس ليكون منهم الطلائع الأولى التي تنهض بخدمة البلاد، وتقود قوافل النضال إلى ميادين الجهاد المختلفة، ليتم على أيديهم تحرير البلاد وتخليصها من كل أشكال الظلم والاستعباد**»[2] هذا ما دفع بالشباب الجزائري إلى الانخراط في الجمعيات والنوادي، والإقبال على المدارس والمساجد، حيث يجدون هناك ما ينبههم إلى الأخطار التي تتهددهم. ويعد جامع "سيدي لخضر" بقسنطينة القاعدة المتينة لجمعية العلماء التي تعتمد عليها الجمعية، في تكوين الطلاب الجزائريين التكوين الأولي، لتتولى بعد ذلك «**إيفاد البعثات إلى المشرق العربي الإسلامي لإتمام الدراسة في المعاهد العليا، وخاصة في جامعة الزيتونة بتونس**»[3] ليعودوا فيما بعد وهم متشبعون بثقافة الجهاد والإصلاح، والرغبة في تغيير الأوضاع السيئة التي آل إليها المجتمع الجزائري بسبب الاستدمار.

3- في المجال السياسي:

لم يقتصر الدور الذي لعبته جمعية العلماء المسلمين الجزائريين على الجانبين التعليمي التربوي والديني فقط، وإنما تعدى ذلك إلى جميع جوانب الحياة الأخرى للجزائريين، وعلى رأسها الجانب السياسي، رغم أن قانونها الأساسي حرم الخوض في

---

[1] المرجع السابق، ص 24.

[2] عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان: المرجع السابق، ص 34.

[3] بسام العسلي: المرجع السابق، ص 149.

المسائل ذات الطابع السياسي. ولكن نظرا لسياسة فرنسا الاستعمارية الظالمة، وجدت الجمعية نفسها مضطرة للعب الأدوار الرئيسية في حماية المجتمع الجزائري من خطر الاستعمار، حيث يعتبر الأستاذ رابح تركي هذه الجمعية «**بأنها الدرع الواقي الذي وقى الجزائر من خطر الاندماج والذوبان في فرنسا، وأنها الأب الشرعي للثورة الجزائرية التي قامت في أول نوفمبر 1954**»[1] وهذا من خلال محاربة الأفكار الهدامة المضللة التي غرسها الطرقيون في نفوس بعض الجزائريين، بمساعدة من الفرنسيين. وهكذا فقد اعتبر ابن باديس «**عدوا لفرنسا أفسد سياستها، وقطع الطريق أمامها في سبيل إلحاق الجزائر بفرنسا، وذلك لأنه أول من حدد فكرة الوطن الجزائري في النصف الأول من القرن العشرين** »[2] بعدما كان الحديث في هذا الموضوع حينذاك خطا أحمر لا يمكن تجاوزه. حدث هذا في الوقت الذي راح فيه بعض الجزائريين ينكرون وجود الأمة الجزائرية كما فعل فرحات عباس* ما جعل عبد الحميد بن باديس يرد عليه في هذه المسألة حيث يقول: «**نعرف كثيرا من أبنائنا الذين في غير أحضاننا ينكرون (...) تاريخنا ومقوماتنا، ويودون لو خلعنا ذلك كله واندمجنا في غيرنا، وكنا نرد عليهم بالقول (...) الأمة الجزائرية أمة متكونة موجودة كما تكونت ووجدت في كل أمم الدنيا... »**[3]

ومن الجوانب السياسية التي خاضت فيها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، وعلى رأسها الشيخ عبد الحميد بن باديس، دعوتها على لسان رئيسها إلى عقد مؤتمر إسلامي في الجزائر، وكان ذلك سنة 1936، وهذا بسبب الرغبة في لم شمل الجزائريين، وجعلهم في صف واحد، يبحثون عن المخرج المريح للجزائريين من الوضعية الاجتماعية

---

[1] محمد طهاري: المرجع السابق، ص 50

[2] المرجع نفسه، ص 38.

* ورد بيان ذلك في الصفحة

[3] المرجع نفسه، ص 40.

الصعبة التي يتخبط فيها المجتمع الجزائري، من جراء عمل الاستعمار على القضاء على الشخصية الجزائرية، والثقافة الإسلامية.

كما نسجل في هذا الإطار الدعوة الصريحة للنواب إلى مقاطعة المجالس النيابية؛ حيث دعا ابن باديس جميع النواب إلى مقاطعة هذه المجالس، طالما حرم الجزائريون من حق المساواة مع نظرائهم الفرنسيين، « **وقال في هذا النداء: حرام على عزتنا القومية وشرفنا الإسلامي أن نبقى نترامى على أبواب برلمان أمة ترى أو ترى أكثريتها ذلك كثيرا علينا...ويسمعنا كثير منها في شخصيتنا الإسلامية ما يمس كرامتنا، ويجرح أعز شيء علينا لندع الأمة الفرنسية ترى رأيها في برلمانها، ولنتمسك بشخصيتنا...**»[1]

وهكذا فقد ظلت الجمعية تسير في خط معاداة الاستعمار، ومقاومته بشتى الطرق،حيث كانت تدعو الجزائريين في كل مرة إلى ضرورة التصدي للمستعمر الذي أراد المذلة للجزائريين، بغرض إخضاعهم، كما فعل في مئوية احتلال مدينة قسنطينة لما أراد الاحتفال بهذا التاريخ، فكان ابن باديس بالمرصاد لهذا الاحتلال، من خلال دعوته إلى مقاطعة هذه الاحتفالات الاستفزازية.

ثانيا: ظهور الصحافة:

بالموازاة مع الحركة الفكرية والثقافية التي شكلتها النوادي والجمعيات الثقافية، ظهرت الصحافة الوطنية الجزائرية المكتوبة بالعربية والفرنسية، وشكلت أداة من أدوات المقاومة الثقافية ضد الثقافة الغريبة، التي جلبها الاستعمار الفرنسي إلى الجزائر، كما مثلت قناة من قنوات الاتصال بين الأوساط الجزائرية المتعلمة، وخاصة بعد الحرب العالمية الأولى « **لاسيما بعد الانفتاح الكبير على العالم، ومن خلاله على الحركة**

[1] عبد القادر فضيل، محمد الصالح رمضان: المرجع السابق، ص 112.

الثقافية الفكرية والسياسية العالمية»[1]، وقد ساهمت هذه الصحافة في بعث الوعي الفكري والقومي لدى الكثير من الجزائريين من خلال فضح السياسة الاستعمارية التي مورست عليهم، ما جعل هؤلاء الجزائريين يرفضون هذه السياسة، مطالبين بحقهم في العيش الكريم، كما «**كان لها الفضل في بلورة الوعي النضالي السياسي والتأريخ لمرحلة جديدة تعتمد على الوسائل السليمة بعدما جرب الجزائريون مرحلة المقاومات الشعبية المسلحة**».[2]

إن للصحافة الوطنية لشأنا كبيرا في عديد الميادين، حيث يعود لها الفضل في نشر الثقافة، ومكافحة الأمية، والتعريف بالإنتاج الأدبي، وإحياء اللغة العربية والمحافظة عليها، وإحياء التراث القديم للأمة، والمساهمة في نشر الدعوة الإصلاحية، وكذلك في كونها مجال الدعوة للحركات الوطنية..[3] وبذلك تكون الصحافة الوطنية قد شكلت مكسبا ثقافيا للجزائريين، وهذا من خلال الأدوار التي لعبتها في تنامي الروح الوطنية في نفوس الجزائريين، كما حلت «**بديلا عن المسجد، والزاوية، وقنوات الاتصال الأخرى التي استعملها المثقفون الجزائريون للنهوض بالحركة الثقافية والفكرية والسياسية**»[4] والتي لم تنجح بسبب سياسة التضييق التي اتبعتها إدارة الاحتلال. ومن أهم الصحف الجزائرية التي ظهرت حينذاك أذكر:

أ- **المنتخب (1882):** صدرت بقسنطينة باللغة الفرنسية، كان يشرف عليها أحمد بن بريهمات.

---

[1] عمار يزلي: الثقافة في مواجهة الاحتلال/ دراسة، منشورات السهل، الجزائر، 2009، ص 209.

[2] عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 105.

[3] ينظر أنيسة بركات درار: المرجع السابق، ص 163.

[4] ينظر عمار يزلي: المرجع السابق، ص 209.

ب- النصيح (1899 – 1900): أسبوعية، صدرت باللغتين العربية والعامية وهي موالية للولاية العامة بالجزائر.

ت- كوكب إفريقيا: أول صحيفة تصدر باللغة العربية من قبل طاقم صحفي جزائري خالص في بداية القرن العشرين.

ث- الحق: صدرت بوهران باللغة الفرنسية، مديرها شارل طابي ورئيس تحريرها عمر راسم.

ج- المغرب (1903- 1913): كانت تصدر مرتين في الأسبوع، وهي موالية لسياسة الولاية العامة بالجزائر.

ح- المصباح (1904 – 1905): أسبوعية صدرت بوهران باللغتين العربية والفرنسية ، ثم بعنوان الهلال (1906- 1907)، مديرها العربي فخار.

خ- الجزائر (1908): أصدرها في الجزائر العاصمة عميد الصحافة الجزائرية عمر راسم.

د- الإسلام (1909 -1911): صحيفة ذات توجه اندماج، صدرت في عنابة ثم في الجزائر، مديرها العام الصادق دندن.

ذ- الفاروق (1912): هي صحيفة إسلامية علمية، اجتماعية، أدبية أصرها عمر بن قدور.

ر- الإقدام (1919): أصدرها الأمير خالد باللغتين العربية والفرنسية توقفت عام 1923.

ز- المنتقد (1925): هي ذات طابع إصلاحي ديني، أصدرها عبد الحميد بن باديس وشاركه في تحريرها مبارك الميلي، والطيب العقبي، وأبو اليقظان وغيرهم.[*]

[*] ينظر عبد الوهاب بن خليف: المرجع السابق، ص 106.

س- الأمة (1930): لسان حال نجم شمال إفريقيا.

ش- البصائر (1935): لسان حال جمعية العلماء المسلمين الجزائريين.

ص- الشهاب (1925): مقرها قسنطينة، أسسها زعماء جمعية العلماء المسلمين، مديرها عبد الحميد بن باديس.[*]

[*] المرجع السابق، ص 107.

تطرقت في هذا الفصل إلى واقع المقاومة الثقافية في الجزائر، وهذا بعدما أعطيت تعريفا مختصرا لمفهوم المقاومة، والمقاومة الثقافية، حيث رأيت أن الأدباء الجزائريين قد اتخذوا من القلم وسيلة للدفاع عن المقومات الأساسية للهوية الوطنية حفاظا عليها من محاولات المسخ، التي تعرضت لها من طرف الاستعمار الفرنسي، الذي لم يذخر جهدا في سبيل محاربتها، من خلال البدع والخرافات التي نشرها في أوساط الجزائريين من جهة، ومحاربة الدين الإسلامي، ومنع تعليم اللغة العربية، وإحلال اللغة الفرنسية محلها من جهة أخرى.إلا أن المثقفين الجزائريين كانوا بالمرصاد إلى هذه المحاولات اليائسة، التي لم تزدهم إلا جرأة وحماسا وهم يتخذون من اللسان الفرنسي وسيلة للمواجهة، فكتبوا الرواية وألفوا القصة ونظموا الشعر، مصورين من خلال ذلك الواقع المرير الذي عاشه أبناء الجزائر بسبب الاستعمار.

كما استعرضت بعض الملامح السياسية والثقافية التي سادت المجتمع الجزائري خلال فترة الاحتلال الفرنسي التي نشأت في خضمها الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية. وهنا أشرت إلى ظهور الأحزاب السياسية بمختلف توجهاتها السياسية والدينية، وكذلك الصحافة، وتشكيل النوادي والجمعيات الثقافية، التي كان لها الدور الفعال في نشر الوعي بين أوساط الجزائريين بضرورة المطالبة باسترجاع السيادة الوطنية والدفاع عن المقومات الأساسية الهوية الجزائرية.

الفصل الثالث

تجليات المقاومة الثقافية في الرواية

الفصل الثالث: تجليات المقاومة الثقافية في الرواية

المبحث الأول: التعريف بمالك حداد

المبحث الثاني: ملخص محتوى الرواية

المبحث الثالث: صور المقاومة الثقافية في الرواية

المبحث الرابع: رمزية الرواية

سأخصص هذا الفصل التطبيقي لتتبع ورصد بعض تجليات المقاومة الثقافية التي تناولتها في القسم النظري، في رواية مالك حداد، « Le Quai aux fleurs ne répond plus » ، والتي ترجمها إلى العربية أكثر من مترجم واحد، فبالإضافة إلى الأستاذ حنفي بن عيسى ،هناك الناقد والأديب السوري ذوقان قرقوط الذي رأى أن هذا العمل الأدبي لمالك حداد جدير بالترجمة، نظرا للقيمة الأدبية والفنية التي يحملها. ولعل هذا ما جعلني أختارها مدونة للدراسة، خاصة وأنني رأيت أنها تحوي عدة صور ونماذج للمقاومة الثقافية، وهذا من خلال تقديمها للشخصية الرئيسة لها "خالد بن طوبال"، الذي يمكن أن يكون نموذجا للجزائري الشجاع الذي يقف بالمرصاد في وجه التحديات الثقافية، والسياسية، والاجتماعية التي واجهها الجزائري المثقف خلال العهد الاستعماري، حيث عانى التمزق والتشتت، وعاش المأساة، إلا أنه بقي صامدا مقاوما ، كما سنرى..

المبحث الأول: التعريف بمالك حداد.

ولد مالك حداد في الخامس من جويلية عام 1927 بمدينة قسنطينة، ينحدر من عائلة قبائلية، متشبعة بالثقافة الفرنسية، متمسكة بأسلوب الحياة الأوروبية، ما جعله يقرر أن يولد من جديد في الثامن من شهر ماي 1945، كما صرح هو بنفسه بذلك، حيث تمرد على أسرته، بعدما دبّ في نفسه شعور بالوعي بهويته الحقيقية، المتمثلة في العربية، والأمازيغية، والإسلام.

حُرم مالك حداد من دخوله المدرسة الأهلية، التي تعلّم القرآن، والعربية، فدخل المدرسة الفرنسية في سن السادسة من عمره، ليتحصل منها على الشهادة الابتدائية. التحق بعدها بثانوية قسنطينة ليدرس الفلسفة، إلى أن نال شهادة الباكالوريا. بعدها أُرسل إلى فرنسا لمواصلة الدراسة الجامعية، أين حاز على شهادة الليسانس في الحقوق من جامعة "إكس بروفانس".

بعد عودته إلى الجزائر، ناضل في الحزب الشيوعي الجزائري، كما اشتهر بالكتابة الصحفية في بعض الصحف على غرار "ليبرتي" حيث كان يتميز في كتاباته بالروح الوطنية، وبالنضال من أجل الحرية لوطنه.

تميز أيضا بكتابة الشعر باللغة الفرنسية، كما الرواية، ليتوقف عن الكتابة بلغة العدو بمجرد نيل الجزائر استقلالها سنة 1962.

بعد الاستقلال تقلد مناصب هامة في الدولة حيث ترأس اتحاد الكتاب الجزائريين، ثم عين مديرا للثقافة، كما أشرف على مجلة "آمال". توفي مالك حداد في الثاني من شهر جوان 1978 بعد معاناة مع المرض.

من مؤلفاته:

- الشقاء في خطر 1956، وهو ديوان شعري.

- الانطباع الأخير 1958، وهي رواية تدور أحداثها حول الثورة الجزائرية.

- سأهبك غزالة، وهي رواية ترمز إلى رغبة الجزائريين في السيادة الكاملة، ورفض فصل الصحراء عن الجزائر.

- التلميذ والدرس 1960، وهي رواية كذلك تصور استحالة فكرة الاندماج.

- رصيف الأزهار لا يجيب 1961، وهي الرواية التي سأطبق عليها، وهي ترمز إلى الوعي الذي تحلى به مالك حداد بعد مجازر 8 ماي 1945.

- اسمع وسأناديك 1961، وهو عبارة عن ديوان شعري.*

كما كتب مالك حداد « **عدة مقالات شرح فيها ما أسماه "مشكلة التعبير" في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية** »[1]، هذه المشكلة التي نشأت عن كون هذا الأدب جزائري الروح، فرنسي الشكل، الأمر الذي وضع أولئك الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية في مأزق حقيقي، كما جعلهم يشعرون أنهم في منفى.

[1] حيزية سلمى: إستراتيجية الإيضاح في الترجمة، رواية "رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد أنموذجا، دراسة تحليلية، مذكرة ماجستير في الترجمة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008/ 2009، ص 89.

المبحث الثاني: ملخص محتوى الرواية.

رصيف الأزهار لا يجيب" أو "ليس في رصيف الأزهار من يجيب" كما ترجمها المفكر ذوقان قرقوط، هي رواية بالفرنسية للكاتب الجزائري مالك حداد، وهي آخر ما كتب، نُشرت هذه الرواية في فرنسا أول مرة، وكان ذلك سنة 1961، قسمها صاحبها إلى 29 بابا، وظف فيها مالك حداد شخصيته، من خلال الشخصية الرئيسية خالد بن طوبال، ذلك الرجل المثقف الذي يسافر إلى فرنسا وبالذات إلى باريس ليتخذ منها منفى له، شأنه في ذلك شأن العديد من المثقفين الجزائريين، الذين تضطرهم الظروف إلى الهروب من الواقع المرير الذي يعيشونه بسبب الاستعمار، وبسبب الحرب المسلطة عليهم.

لقد حط خالد الرحال بمرسيليا، قبل إتمام رحلته بالتوجه إلى باريس، يحذوه أمل الالتقاء بصديق الدراسة "سيمون" في المحطة، بمجرد النزول بها، ولكن ذلك لم يتحقق رغم أنه قد أبرق له، لقد أحس خالد بشيء من الحسرة.

في الوقت الذي تذكر فيه خالد ربيع الجزائر الدامي عام 1945، كما تذكر أبناءه ووردته، الذين تركهم خلفه في الجزائر الجريحة، دخل في حياته كائن غريب، أراد أن يعكر صفو العلاقة التي تربطه بسيمون، إنه زوجة هذا الأخير "مونيك" التي لم تخف تعلقها الشديد بخالد وإعجابها بكتاباته، وإلحاحها في تحقيق رغباتها الجنسية معه، إلا أنه بقي حريصا على العلاقة التي تربطه بصديقه "سيمون" من جهة، و وفيا لزوجته وريدة التي تتولى أمر أبنائه من جهة أخرى.

ولكن برغم شجاعة خالد وصموده إزاء إغراءات مونيك ومضايقاتها له، وكذلك صبره على اشتياقه الشديد لزوجته وريدة إلا أن باريس القاسية بجوها المتعفن، وعاداتها الغريبة، وسلوكاتها المشينة قد حطمته نفسيا، وشردته فكريا، ونغصت عليه حياته، وأدخلته في متاهات لم يخرجه منها سوى تذكره لقسنطينة مسقط الرأس، ولأزقتها التي تربى

فيها، ولجسورها، ولطيورها... على أمل العودة إليها من جديد، لملاقاة الأهل والأحباب، ومعانقة الزوجة والأولاد.

ولكنه صدم في آخر المطاف، حيث أنه لما بدأ يتهيأ للعودة، قرأ في إحدى الصحف نبأ اغتيال المجاهدين لامرأة جزائرية خائنة برفقة ضابط فرنسي، إنها وريدة التي آمنت بـ "جزائر فرنسية" ما جعل خالد يقرر وضع حد لحياته، فألقى بنفسه من القطار وفاء منه لماضيه، ولوطنه، ولحبه...

المبحث الثالث: صور المقاومة الثقافية في الرواية.

1- خالد بن طوبال رجل جزائري مقاوم:

يمثل خالد بن طوبال من خلال أحداث الرواية الرجل الجزائري المقاوم الذي لا يموت [1]« **Un Algérien ne meurt jamais**» ولا يستسلم برغم الظروف الصعبة التي يعيشها [2]« **Ne subit jamais** » هذه الظروف التي أوجدها وفرضها عليه الاستعمار الفرنسي، الذي أراد تشويه صورة الجزائر، من خلال القضاء على ثقافتها، ومسخ مقوماتها الروحية.. الأمر الذي جعل أمثال خالد بن طوبال يتخذون من المقاومة وسيلة للدفاع عن الذات [3]« **Quand on me dit montagne, moi je pense maquis**» رغم أنه اضطر إلى اختيار حياة المنفى، الذي حرمه من العيش في بلده، بعيدا عن أهله وأحبابه، إلا أنه لابد أن يصبر على وحدته، وعلى معاناته، لأن التضحية في سبيل الوطن تتطلب كثيرا من المتاعب.

---

(1) MALEK Hadad : le quai aux fleurs ne répond plus, édition réni julliard, Paris, 1961, p 46.

(2) Ibid, p 51.

(3) Ibid, p 16.

«**Khaled sait que ces situations exigent beaucoup de patience, qu'il foudra attendra avant d'avoir des novelles (...)qu'il foudra tenir le coup, surtout tenir le coup. C'est –à- dire s'organiser dans sa solitude**»[1]

ولذلك عليه أن يواجه هذا المنفى بالابتسامة؛ لأن الابتسامة من شأنها أن تخلصه من متاعبه، وهمومه إلى أن تنفرج الأمور، وتعود للجزائر حريتها، ويعود خالد إلى وطنه، فيتخلص من منفاه.

« **Et parfois il sourit, et quand, il sourit il n'ya plus d'exil** »[2]

2- التمسك بالعادات والتقاليد الدينية:

لقد كان خالد بن طوبال على قدر كبير من الإيمان بالله، رغم عدم ممارسته الشعائر الدينية التي أوصى بها الإسلام، وهذا بسبب الظروف المعيشية القاسية التي صار يعيشها في باريس المادية، إن الشعور الديني قد وجه سلوكه وجعله ينفر من المجتمع الباريسي الذي لا يؤمن سوى بالمادة، إنه مجتمع الإلحاد، والانحلال الخلقي، والانحراف السلوكي، أما خالد فقد كان ثمرة تربية عريقة، استمدها من روح الدين الإسلامي.

«**Mais KHALED était le fruit d'une séculaire éducation on apelle ça pudeur** »[3]

---

(1) Ibid, p 65.

(2) Ibid, p 50 .

(3) Ibid, p 69.

وقد اتضح موقفه من بعض العلاقات الاجتماعية، والأفعال والسلوكات والتي حرمها الدين الإسلامي، من خلال تصديه ومقاومته لإغراءات مونيك واستفزازاتها له، والتي ترمي في مجملها إلى الإيقاع بخالد، وإخضاعه لممارسة الزنا معها، إلا أن هذا الأخير بقي مقاوما، متماسكا، حريصا على عدم الوقوع في الخطأ، حتى لا يأخذ علامة الصفر في السلوك كما يقول :

«**JE ne voudrais pas me mettre un zéro de conduite**» [1]

وهو إذ يرفض إقامة علاقة غير شرعية مع مونيك خوفا من فاحشة الزنا، فإنه في الوقت ذاته يحاول أن يبقى وفيا لزوجته وريدة البعيدة عنه بعدا زاده اشتياقا للقائها، لذلك بقي حذرا في معاملته لزوجة صديقة سيمون.

«**A condition de ne pas déraper monique guedj**». [2]

وهكذا ظل متسلحا بقوة الإيمان، ملتمسا لنفسه كل وسائل الدفاع أمام إصرار مونيك التي، لم تمل في سبيل تحقيق رغباتها، وإشباع غرائزها، كما تمكن في الأخير من التغلب عليها، وذلك لأنه لم يترك لها منفذا تتسلل عبره إلى قلبه، وإلى جسمه!

« **J'étais allé fermer les fenêtres pour que le vent n'entre pas dans le bateau**». [3]

لأنه إن حدث ذلك فسيؤدي به الأمر إلى الوقوع في الحرام، من خلال ممارسة فاحشة الزنا أولا، والخيانة الزوجية ثانيا، وهذا ما يتنافى مع تعاليم الدين الإسلامي الحنيف

---

(1) Ibid, p124.

(2) Ibid, p33.

(3) Ibid, p126.

الذي يحرم مثل هذه الأعمال، والتي يستنكرها خالد، ولذلك وصف زوجته وريدة حينما ارتكبت غلطة الوقوع في الحرام مع الضابط الفرنسي بالمجرمة.

« **Ton erreur te portera tort, tu es coupable devent l'amour, l'honneur et la liberté**».[1]

ومن العادات والتقاليد الدينية أيضا التي يتمسك بها خالد، عادة التبول من خلال حرصه على عدم التبول واقفا، لأن هذه الاستراحة الجسدية، إنما يأخذها الإنسان الشرقي المسلم في وضعية مختلفة تماما عن وضعية الإنسان الأوروبي، حيث يتبول جالسا امتثالا لتعاليم الدين الإسلامي، وفي هذا الصدد ينهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبول في وضعية الوقوف، حرصا على نظافة الثوب والجسد من جهة، وتجنبا للأمراض من جهة أخرى؛ **((فعن عمر قال: رآني النبي صلى الله عليه وسلم وأنا أبول قائما فقال: يا عمر، لا تبل قائما، فما بلت قائما بعد))**. [2]

بقي أن أشير في الأخير إلى عدم استحسان خالد لظاهرة اجتماعية غريبة متفشية في المجتمع الغربي، وهي أن تتولى المرأة بنفسها القيام ببعض الواجبات نيابة عن الرجل، عكس ما نجده في المجتمع العربي المسلم، كأن تستقبل الضيوف من الرجال الأجانب، وتجالسهم، وتسهر معهم، وتحادثهم، وتسافر معهم، بل وتفعل ما يطيب لها معهم، دون أن تمتلك الغيرة زوجها، ودون أن يتجرأ زوجها على منعها من هذه التصرفات، التي تتنافى والقيم الإسلامية التي تحد من الحرية المطلقة للمرأة، وتحرم عليها مخالطة الأجانب.

---

[1] Ibid,p 171.

[2] الحافظ أبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي: سنن الترمذي (أبواب الطهارة)، المجلد الأول، دار الكتاب العربي، بيروت، ط3، ص 22.

3- التمسك بالعادات والتقاليد الاجتماعية:

لقد كان خالد وطنيا مخلصا، مرتبطا ارتباطا شديدا بكل ما له علاقة بتقاليد بلاده الاجتماعية، إنه لم يفقد هويته، فرغم أنه يعيش بعيدا عن الجزائر، يعاني من المنفى إلا أن عقله بقي مشدود إلى الجزائر، وإلى عاداتها وتقاليدها، يتذكرها كل لحظة... يتذكر النسوة اللاتي لا يستطعن تناول الطعام علانية أمام أعين الناس.

« **Je suis un peu comme ces femmes de chez moi qui ne peuvent pas manger en public**». [1]

فهو مثلهن تماما في حشمتهن، وتربيتهن، وحيائهن، الذي يمنعهن من الظهور أمام الأجانب، والغرباء أثناء ممارسة أعمالهن اليومية.

كما يشده الحنين إلى تذكر بعض المناسبات الدينية التي يحتفل بها الجزائريون كل سنة، وما يصاحبها من مظاهر احتفالية، على غرار إحياء ذكرى المولد النبوي الشريف بالتطيب، والتزين، والتطهر، وغيرها.

«**Les filletes, dans le cheveux sentent le musc et le henné par les soirs de mouloud**»[2]

بالإضافة إلى مظاهر الحياة اليومية في الأسواق العربية، حيث يتهافت الناس على شواء عرانيس الذرة، وتمليحها، وأكلها، وتلك عادة متأصلة في المجتمع الجزائري.

---

[1] MALEK Haddad, op.cit, p 69.

[2] Ibid,p 86.

« **Sur les marchés arabes, on grillait des épis de maïs que l'on mangé bien salés en aspergeant d'eau tiède».** [1]

إن منظر شواء الذرة، وتصاعد الدخان، وما يصاحبهما من بيع لبعض الخضروات على قارعة الطريق، مثل الخرشوف وغيره، لمن خصائص ومميزات يوميات الأسواق العربية، التي تكتسي طابعا شرقيا، يختلف كثيرا عن طابع الأسواق الفرنسية، خاصة لما تنتشر الجوامع، ويرفع الآذان، ويسارع المصلون لأداء فرائضهم.

«**Elle choisira les artichauts, elle verra les mosquées (...) la fumée des maïs que l'on grille».**[2]

كل هذه الأجواء، هي من مميزات يوميات الأسواق، والشوارع الجزائرية والتي تميز ثقافة هذا المجتمع، وعاداته وتقاليده التي اشتاق إليها خالد، وهو بعيد عن وطنه.

4- الاعتزاز بالعروبة.

إن خالدا وبرغم الإغراءات التي قدمتها له العاصمة الفرنسية باريس، بكل ما تحمل من متع براقة، إلا أنه بقي وفيا لجزائريته، ولعروبته المتجذرة، التي تتميز بقيمها الخاصة ، إما ثقافية وإما اجتماعية، تختلف كل الاختلاف عن القيم الفرنسية الغريبة« **فهو في فرنسا يشعر دائما أنه مقيم عابر، فكل شيء يذكره بوضعه باعتباره أجنبيا. إن قبله في الجزائر حيث عالمه الثقافي ومحيطه الإنساني: الزوجة والأبناء، وقطعة الأرض»**[3]، إنه لم يشعر يوما وهو في فرنسا بشيء من الراحة والسعادة والاطمئنان، وقد صرح بذلك لمونيك قائلا:

---

(1) Ibid,p 147.

(2) Ibid,p 54.

(3) أنندري لوكورتوا: مرجع سابق، ص 54.

« **Je suis arabe, monique, et la pudeur me l'interdit**».[1]

وإذا تساءلنا عما يمنعه عنه حياؤه، فإننا نجد ممنوعات كثيرة ومتعددة: الارتماء في أحضان مونيك، حب باريس، التشبع بالثقافة الفرنسية.... وغيرها من العادات والتقاليد الغريبة التي لا تمت بصلة إلى الثقافة العربية الإسلامية، فخالد إذن عربي بثقافته، وبتفكيره، بقبله، وبعقله.

«**Mon cœur est un arabe énigmatique et tendre**». [2]

وتبقى باريس إذن مجرد منفى اضطراري فر إليه خالد، على أمل أن يعود إلى بلاده حالما تتحسن الظروف السياسية والأمنية، كما أنها (باريس) بشوارعها الجميلة لن تنسيه الشوارع العربية.

«**Mais bien sur mon amour, le boulevard saint- Michel ne fait pas que j'oublie notres rue des arabes et d'ailleurs, des arabes**».[3]

وما دام الأمر كذلك فإن خالدا لا يؤمن بفكرة الإدماج التي دعا إليها الكثير من الجزائريين المثقفين، الذين قبلوا بالفكرة التي روج لها الاستعمار الفرنسي، والتي تدعو إلى جعل الجزائر قطعة من فرنسا لا تنفصل عنها. إننا نلمس هذا الموقف من خالد حينما وصف تلك المرأة التي اغتالها الإرهابيون على حد وصف الصحافة بـ "البائسة" التي آمنت بفكرة قيام "جزائر فرنسية".

---

(1) MALEK Haddad, op.cit, p 68.

(2) Ibid,p 84.

(3) Ibid,p 121.

« **La malheureuse victime avait affirmé ca croyance en une Algérie française**».[1]

فالجزائر تبقى إذن عربية لا تندمج مع فرنسا، ويبقى خالد متمسكا بهذه القناعة.

5- الارتباط بالتاريخ الوطني.

لقد أحسن خالد التعبير عن ارتباطه بوطنه، وانتمائه إليه ثقافيا، وذلك من خلال تعلقه بتاريخ الجزائر، القريب، والبعيد، ويتجلى ذلك من خلال اختياره لقسنطينة، هذه المدينة العريقة التي استعصت على فرنسا؛ ولم تسقط إلا في 13 أكتوبر 1938، في الوقت الذي سقطت فيه الجزائر العاصمة في ظرف سبعة أيام فقط. كما أن قسنطينة عرفت قبل ذلك مقاومات عنيفة، قادها أبطال شجعان من أمثال يوغرطة وماسينيسا في عهد النوميديين، وكذلك فيها قاد أحمد باي مقاومته ضد الاستعمار الفرنسي، ولم يرض بالاستسلام، رغم إغراءات الفرنسيين، والامتيازات التي قدموها له، مقابل الاعتراف بالسيادة الفرنسية، وهكذا تحول أحمد باي، من باي إلى رجل مقاوم، وهذا ما قام به خالد بن طوبال؛ حيث عاد بذاكرته إلى أهم الأحداث التي عرفها تاريخ فرنسا الاستعماري في الجزائر ، كالمجازر التي ارتكبتها في حق الجزائريين، وخاصة مجازر الثامن من ماي 1945، والتي بقيت راسخة في ذهنه لم تمحها السنون.

« **Le pays se remettait péniblement de son printemps sanglant**».[2]

هذا التاريخ الذي يمثل بالنسبة لخالد الشيء الكثير، حيث يعتبره يوم ميلاده.

---

[1] Ibid,p .163.

[2] Ibid,p 14.

وفي ذلك إشارة إلى ميلاده الفكري والسياسي، لأن تلك الأحداث الدامية التي عاشتها الجزائر في تلك الحادثة، قد شكلت لديه وعيا سياسيا، وجعلت منه ذلك الوطني المناضل الذي يتألم لحال وطنه، وما آلت إليه أوضاع هذا الوطن، وهذا نظرا لما ارتكبه أولئك الوحوش على حد وصف خالد، والذي يتمنى أن ترحل من بلاده

«**Mais quand ils partiront les monstres, les monstres subalternes et les monstres omnipotents, les monstres quotidiens, les monstres qui ne ressemblent pas à des monstres...**».(1)

لأنهم عاثوا فيها فسادا، وخاضوا حربا بشعة، لا تشبه الحروب.

«**...Elle n'en demeure pas moins durement miraculeuse la guerre d'Algérie, la guerre de la France**».(2)

هذا ما جعل خالدا يتألم، ويتحسر على حال بلده، وعلى الأوضاع التي يعيشها الجزائريون يوميا، من تعذيب، وتقتيل، ونفي، وسجن...

«**Chaque jour, une nouvelle remuait le couteau dans la plaie. un tel a disparu, un tel est arrêté, un tel est torturé... la raison ne vacille pas mais le cœur chancelle**».(3)

6- نبذ عادات باريس وتقاليدها.

لقد غادر خالد بلده بسبب الظروف الاجتماعية، والسياسية الصعبة التي أوجدها الاستعمار الفرنسي، واستقر بباريس، بعيدا عن عالمه الحقيقي، ومحيطه الثقافي، مما

(1) Ibid,p 43.

(2) Ibid,p 50.

(3) Ibid,p 103.

جعله يحس بأنه في منفى، وأنه كائن غريب ومقيم أجنبي، وباريس حينها صارت عادة سيئة[1]« **paris, c'est une mauvaise habitude** » ، وهو يحمل الكثير من الأحقاد، والمشاعر الدفينة، اتجاه الاحتلال الذي اغتصب أرضه، وسلبه هويته، وجعله يعيش في حيرة، مضطربا قلقا، وها هو يظهر هذا الاضطراب، من خلال إجابته على سؤال سيمون حول حالته حينما اتصل به هاتفيا:

«**Comment vas- tu ?- Comme paris**».[2]

إن خالدا يعيش في عالم مليء بالتناقضات، تائها وسط مجتمع مختلف تمام الاختلاف عن مجتمعه الحقيقي، من حيث الثقافة « **لقد صار عرضة للمناظر المثيرة للجنس الذي يستفزه، وهو الذي تمت تربيته حسب قواعد تفرض قدرا من الحشمة**»[3] فهاهي مونيك عارية[4]« **ET voilà que Monique est nue**» وها هو زوجها يحدث فوضى كبيرة حينما يتبول، وباب المرحاض مفتوح تماما.

«**Le mari fait du bruit en faisant pipi, la porte des toilettes est à peine entrouverte**». [5]

وهذا ما لم يعهده في بلاده، حيث أن الإنسان لما يرتاد هذا المكان لقضاء حاجته، فإنما يلتزم بالقواعد والأعراف التي تفرض شيئا من الحشمة، كأن ينفرد بنفسه في هذا المكان الخاص جدا عند الجزائريين، ويحرص على إغلاق باب المرحاض بإحكام، ومن

---

(1) Ibid,p 27.

(2) Ibid,p 125.

(3) أنندري لوكورتوا: مرجع سابق، ص 58

(4) MALEK Haddad: op, cit, p 19.

(5) Ibid,p 18.

ثمة يقضي حاجته دونما إحداث شيء من الفوضى، التي تسبب إحراجا له ولغيره، وهذا ما دفع بخالد إلى القول: كان ينبغي على سيمون أن يبول بأناقة

«**iL fallait faire pipi avec talent** »[1] ومن التقاليد الاجتماعية السيئة التي بعثت في نفس خالد الاشمئزاز كذلك، عدم استقبال سيمون له بالكيفية اللازمة التي كان يتمناها، حيث كان يأمل أن يجد صديق الدراسة بالمحطة منتظرا، مرحبا، وهذا من عادات الجزائريين حينما يستقبلون الضيوف، ولكن خالدا اصطدم بالحقيقة المرة، حيث أن سيمون ما كان بالمحطة ينتظره ولا في البيت يرحب به، الأمر الذي جعله يشعر باليتم.

«**On se sent toujours un peu orphelin l'orsqu'on débarque quelque part et que personne ne vous attend**».[2]

وقد سبب له ذلك حسرة كبيرة، كما أشعره بأنه بقدومه إلى باريس، قد صار عبء ثقيلا على هذه العائلة الفرنسية، وأنه قد نغّص عليهم حياتهم.

«**J'ai l'impression de tomber comme un cheveu sur la soupe**». [3]

أما اهتمام مونيك زوجة الصديق سيمون بخالد، والذي كان من ورائه أكثر من مجرد إعجاب، فإنه أثار دهشته، لأن مثل هذه التقاليد يعد سلوكا مرفوضا في مجتمع خالد الجزائري، ذلك المجتمع المحافظ، الذي لا يسمح للمرأة بمخالطة رجل غريب، ويضع أمامها خطوطا حمراء، لا يجب تجاوزها.

---

(1) Ibid,p 19.

(2) Ibid,p 11.

(3) Ibid,p 21.

لذلك فخالد لا يحب باريس [1]« **Je n'aime pas paris**» لأن باريس قد زادت أوضاع خالد تأزما، وأشعرته بكثير من الحسرة، والألم والحيرة.

« **Paris était redevenu paris, un géant accablé par sa propre grisaille, par sa propre amertume**».[2]

كما زادته تعلقا بوطنه، واشتياقا لرؤيته، وأيامه في باريس صارت طويلة مثقلة بالملل.

«**chaque jour est plus long, chaque jour morne, chaque jour est plus dramatique**».[3]

وصار يرى كل ما في باريس سيئا، مزعجا حتى نورها الذي أفقده شهية النوم

«**Ainsi, vers le matin, le sommeil venait, mais la lumière que les rideaux ne parvenaient pas à interdire le véveillait par intermittence, c'était une lumière parisienne grise et poisseuse, presque solide…**» [4]

7- التعلق بقسنطينة وفاء للوطن وتمسكا بالهوية.

عاد مالك حداد من خلال الشخصية الرئيسية في الرواية "خالد بن طوبال"، بخياله إلى الماضي، مسترجعا شريط الذكريات الجميلة التي عاشها في قسنطينة، مسقط رأسه، وأرض آبائه، وأجداده، معتزا بانتمائه إليها. إنه يحس بالألم كلما ابتعد عنها، لهذا يقول

---

(1) Ibid,p 136.

(2) Ibid,p 125.

(3) Ibid,p 57.

(4) Ibid,p p 65 66.

دائما« **إني لأحس السجون في قلبي مهما تخطى الحدود، إني أتمزق ضجرا كلما تذكرت أني بعيد عن أرض الجزائر**». [1]

إن قسنطينة ما هي في الحقيقة سوى مكان ثقافي بالنسبة إليه، وهذا لما للمكان من أهمية في التعبير عن هوية الكاتب، كما أكد على ذلك الدكتور إبراهيم خليل حيث يقول: «**أن للمكان أثرا في التعبير عن هوية الكاتب الروائي والشخوص**» [2]، لذلك فإغفال المكان هو إغفال للهوية، وإنكار للثقافة الأصيلة، وللذات الحقيقية، وهذا ما لم يغفل عنه مالك حداد، بدليل عدم تأثره بالحياة الجديدة، التي صار يعيشها خالد في موطن غريب عنه، وعن ثقافته الجزائرية، كما لم ينس وطنه وطفولته التي عاشها فيه، وبقي وفيا لها. وهو إذ ذاك يمجد مبدأ الهوية.

«**KHALED ben tobal n'était fidèle qu'à son enfance. on racontait de lui qu' il était patriote(...) il était Algérien parce qu'il se savait Algérien, il était Algérien parce qu'il était Algérien,et que illustrant ce principe d'identité** ».[3]

وعلى هذا الأساس كان يتغنى بقسنطينة، وبكل ما فيها من أشياء جميلة لم يجدها في باريس؛ فتغنى بشوارعها وأزقتها، وساحاتها، كما تغنى بهوائها، وبشمسها التي لا تكون جميلة إلا في قسنطينة.

«**Comme le soleil n'est beau , n'est valeureux, qu' à constantine**».[4]

---

[1] منصور عمايرة: المقاومة في الأدب الجزائري، 2012، 10، Aroussi, org.13

[2] إبراهيم خليل: بنية النص الروائي، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010، ص 141.

[3] MALEK Haddad : op, cit, p 42.

[4] Ibid,p 107.

كما صور الطيور الجميلة، وهي تزين منظر الصخور التي تتميز بها قسنطينة وتضفي على المكان طابعا جماليا رائعا.

بعد قسنطينة جاب بخياله كافة ربوع الجزائر، وبالخصوص تلك المناطق السياحية الخلابة التي تزخر بها بلاده، والتي اعتاد زيارتها من حين إلى آخر، على غرار الشريط الساحلي الساحر، الذي يمتد من العوانة بجيجل شرقا إلى سفوح الأكفادو غربا مرورا ببجاية.

« **il suffit d'un platane en Provence d'une plage trop jaune entre cavallo et bougie, des oliviers bavards sur les versants de l'ak-fadou** ». (1)

ليعود من جديد إلى قسنطينة التي تمثل الشيء الكثير بالنسبة إليه.

إن خالد بن طوبال بصدد البحث عن هويته، التي لم تكتمل إلا من خلال ربط الصلة ببلده الأصلي، الذي ينتمي إليه روحيا وفكريا، لهذا غلبت عليه نزعة الرفض والتذمر، فرغم أن باريس جذابة إلا أنها لم تجذبه، بقدر ما ذكّرته بقسنطينة التي بقيت راسخة في ذاكرته (2)« **Tous ces hauts lieux du souvenir**» قسنطينة تلك المدينة المبنية فوق الصخرة العتيقة، على جانبي واد الرمال المنساب تحت جسورها على عمق 200 مترا أحيانا، هذا العمق الذي يشبه عمق تاريخ قسنطينة الحضاري، والثقافي والتاريخي... بدليل أن قسنطينة استطاعت أن تنجب رجالا ساهموا في بناء صرح الجزائر الفكري، من أمثال مالك بن نبي، وأحمد رضا حوحو، وكاتب ياسين، والشيخ العلامة عبد الحميد بن باديس. هذا الأخير أسهم أيما إسهام في الإشعاع الحضاري والفكري

(1) Ibid,p 86.

(2) Ibid,p 24.

للجزائر، من خلال تعليم اللغة العربية، وتحفيظ القرآن الكريم لأبناء وطنه، ومحاربة الشعوذة، والدجل، والخرافات، والبدع، ما جعل السلطات الفرنسية تحارب أفكاره بكل الوسائل والطرق. وهذا ما بقي يحز في نفس خالد بن طوبال حينما مُنع من تعلم اللغة العربية، لما كان طالبا في المدرسة، في الوقت الذي تعلم غير العربية وتعرف على غير عبد الحميد بن باديس.

«**Pour étudier Bergson et Descartes, pour ignorer le chikh benbadis et les poètes algériens qui n'ont pas de nom et qui n'ont pas de langue** ».[1]

وهكذا كانت قسنطينة بالنسبة لخالد المكان المفضل الذي بعث فيه حسا وطنيا، وجعله يعلن وفاءه لهذا الوطن، ويدين الممارسات اللاإنسانية للاستعمار.

وهكذا كان خالد ذلك الإنسان الحقيقي الذي «**يكشف عن شخصية الجزائري الجديد الذي تربى في أحضان الثقافة الفرنسية، وعاشر الفرنسيين كما عرف الكثير من الحضارة الأوروبية لاتصاله بها، لذلك تمزق هذا التمزق والذي جعله حائرا أمام وضعه جزائري الدم، فرنسي اللسان**». [2]

8- التصدي لإغراءات مونيك وفاء لزوجته وريدة.

ترى الباحثة والناقدة "سعاد محمد خضر" أن « **خالد يعيش قصة حب واقعية مع مونيك في باريس، ويعيش قصة حب أخرى خيالية مع زوجته الجزائرية وردة" التي تركها وراءه في الجزائر**»[3]، ولكن إذا تأملنا في وقائع هذه الرواية، وتتبعنا أحداثها من

---

[1] Ibid,p 15.

[2] العربي دحو: المرجع السابق، ص 131.

[3] سعاد محمد خضر: مرجع سابق، ص 206.

بدايتها إلى نهايتها، فإننا سنقف على حقيقة خالد، وعلى صدق مشاعره اتجاه زوجته وريدة، التي بقي وفيا لها رغم بعده عنها، ورغم الاستفزازات والإغراءات التي لقيها من زوجة صديقه مونيك، تلك الزوجة التي استجمعت كامل قواها، وسخرت كل وسائلها المادية، والمعنوية من أجل الإيقاع بهذا الكائن الغريب (خالد) الذي شردته الظروف القاسية، التي تمر بها بلاده، ودفعت به إلى بلاد الغربة بعيدا عن زوجته الحبيبة التي تركها وراءه في الجزائر.

إن خالدا في هذه الرواية ظل يصف لنا الخصال الحميدة التي تتصف بها زوجته خصوصا، والمرأة الجزائرية العفيفة بصفة عامة، إنها تلك المرأة النظيفة الشريفة، المتواضعة، التي لا يكون همّها الأول هو إرضاء شهواتها الجنسية، بقدر ما يكون خدمة بيتها وتربية أولادها، والتضحية من أجل وطنها، وهذا عكس المرأة الفرنسية الممثّلة في شخص مونيك التي تجردت من كامل حشمتها.

«**Elle se nettoie de sa pudeur**»[1]

وهذا بمجردّ أن وجدت هذا الرجل العربي الممتلئ الجسم، المفتول، العضلات، لعله يشبع رغباتها وشهواتها الجنسية، التي لم تُشبع مع زوجها الذي لم يكن يهتم سوى بتحسين وضعه المادي، على حساب العلاقة الروحية التي تربطه بزوجته.

وهكذا أعلنت مونيك الحرب بينها وبين خالد، في انتظار النتيجة.

«**La guerre froide d'une petite bonne femme jolie comme tout et d'un poète qui pèlerinait était déclarée** ».[2]

---

[1] MALEK Haddad: op. cit, p19.

[2] Ibid,p 23.

إن مونيك، ونظرا لانشغال زوجها سيمون بعمله اليومي، وعدم اهتمامه بواجباته الزوجية، صارت لا تفكر سوى في من يحتضنها.

«**Monique elle voulait qu'on la prenne**»[1] ويمنحها الحب الذي افتقدته مع زوجها، فهي تنتظر تلك اللحظة بشغف كبير، و تستعد لها استعدادا أكبر، وقد تفطن خالد لذلك حينما ظهرت أمامه في صورة مغرية، تحرك المشاعر، وتلهب الجسم... لقد غيرت هندامها، وراحت تتزين لخالد، وتعرض له مفاتنها، مرتدية أجمل الملابس، ذات الألوان الأكثر جاذبية للرجال، جامعة بين اللون الأحمر المثير، والأسود الملهب، جاعلة من نفسها مثل الطاووس التي تقوم بالإجراءات اللازمة، استعدادا للحظة الحاسمة!

«**Monique, qui venait de coucher sa fille, était de retour. Khaled nota qu'elle avait changé de toilette. elle portait une jupe plissée noire, piquée de fleurs rouges et un corsage blanc(...)Khaled nota aussi qu'elle s'était remaquillée** ». [2]

لذلك أدرك خالد تماما بأنه في حالة حرب حقيقية بينه وبين هذه المرأة الفرنسية، فإما أن يستسلم، فيفقد شخصيته، ويخون العهد بينه وبين زوجته، وإما أن يقاوم ويبقى وفيا لزوجته، ، ولهويته، وهنا لابد له من أن يتخير الأسلحة اللازمة للمقاومة.

«**Le duel s'engageait dans l'arsenal de ses moyens, il choisit ses armes : la gentillesse . et il les imposa. très intuitif** ». [3]

---

[1] Ibid,p 31.

[2] Ibid,p 23.

[3] Idem.

لقد اختار خالد الخيار الثاني وهو خيار المقاومة، وفاء لزوجته، وتمسكا بمبادئه وبثقافته، لهذا انبعث في نفسه التطلع إلى الانتصار في هذه المعركة.

«**Le vainqueur se réveilla en Khaled** ».(1)

فبدأ يتهرب من مونيك، ويختلق شتى الحجج حتى لا يلتقي بها.

« **Khaled évitait de se rendre au quai aux fleurs sous prétexte de son roman à terminer** ».(2)

وقد نجح في كثير من الأحيان في الإفلات من قبضتها، إلا أن مونيك لم تستسلم أبدا، وبقيت تسعى في سبيل الوصول إلى قلب خالد، وإلى جسده بكل ثبات، وصبر مثل النملة، وهذا من خلال الاهتمام بأنوثتها وبملابسها.

«**Monique, elle ,ne désarmait pas, elle n'avait jamais été aussi belle, si parfaitement, totalement femme, elle voulait ce qu'elle voulait avec la patience tranquille d'une fourmi** ».(3)

ولما لقيت مونيك مقاومة شديدة من خالد، أرادت أن تصل إلى هدفها من خلال التظاهر بإعجابها بأعماله الأدبية؛ فقد عبرت له أكثر من مرة عن هذا الإعجاب.

«**j'aime beaucoup votre dernier livre, permettez- moi de vous revoir permettez- moi d'embrasser votre main qui écrit…** ».(4)

---

(1) Idem.

(2) Ibid,p 101.

(3) Idem.

(4) Ibid,p 28.

ولكن رغم هذه الحيل إلا أنها فشلت فشلا ذريعا في استمالة خالد إلى جسمها، وإلى أنوثتها.

بعد كل هذه المضايقات انزعج خالد بعض الشيء من مونيك، وراح يسألها عما تريده منه، فجاء الجواب صريحا: أريدك أنت يا خالد.

« **Mais au fait Monique, qu'attendez- vous de moi ? la réponse vint, toute simple : vous** ». [1]

هذه الصراحة المتناهية من مونيك جعلت خالدا يعرب لها عن مدى تمسكه بزوجته وريدة التي يحبها، والتي يعتبرها بمثابة مستقبله، وأمانيه.

«**elle est ma femme, elle porte mon avenir, elle transporte mes espoirs**».[2]

لذلك فهو دائم التفكير في وريدة، يحلم بالعودة إليها يحيطها برعايته، ويرقبها بنظراته.

«**Mais c'est d'abord ourida dans les bras de mes regardes , dans les bras de ma confiance**».[3]

كما أنه يحلم بأنه سيعود يوما إلى باريس، مرفوقا بحبيبته وريدة، وحينها ستزول الأحزان، وتحل الأفراح، وستتغير باريس، ويعود إليها تألقها.

---

[1] Ibid,p 40.

[2] Ibid,p 57.

[3] Ibid,p 57.

«quand je reverrai paris, ourida m'accompagnera. Le matin ne sera plus blême». (1)

وبذلك يعود إلى رصيف الأزهار حسنة وبهاؤه، بعدما ظل شاحبا مثقلا بالأحزان في غياب وريدة.

«Ourida m'accompagnera et nous refleurirons le quai au fleur !».(2)

أما مونيك حينها فستبقى مجرد صديقة لخالد وفقط، سيروي لزوجته وريدة حينما يرجع إلى الجزائر قصتها، كما سيحدثها عن طيبتها، وحسن تعاملها معه طيلة بقائه في باريس(3)« **Je dirai à ma femme votre bonté**» وهكذا ستظل مونيك محرمة على خالد، لأن خالدا يعتبرها أختا لزوجته، والشريعة الإسلامية تحرم على الرجل أن يجمع بين الأختين.

« **puisque j'aime ourida, elle sera votre sœur madame de demain**».(4)

هذا ما رفضته مونيك جملة وتفصيلا، ولم تقبل أن تكون أختا لوريدة، وبقيت متمسكة بخالد لأنها تحبه، والمرأة حينما تحب فإنها لا تؤمن بالمستحيل.

«**Mais elle ne pourra pas être mon amie puisque je vous aime monsieur d'hier**».(5)

ولكن هذا النوع من الحب في ثقافة خالد يُعتبر نوعا من أنواع الخطيئة.

---

(1) Ibid,p 137.

(2) Ibid,p 138.

(3) Ibid,p 155.

(4) Idem.

(5) Idem.

«**il y a ainsi des amours qui (...) respirer un parfum de péché**». [1]

وعليه أرى أن الباحثة "سعاد محمد لخضر" قد أخطأت حينما اعتبرت مونيك حبيبة حقيقية لخالد، ووريدة مجرد خيال.

إن شخصية خالد القوية، ومستواه الثقافي، وثقافته النضالية هي الصفات التي جعلته مصدر انجذاب، وجعلت « **الآخرين يسرعون بالالتفاف حوله، ويوسعونه بالعناية والاعتبار** » [2] فلم تكن لدى خالد النية في إقامة علاقة غير شرعية مع مونيك بقدر ما كان حب مونيك لخالد نابعا من إعجابها به.

9- حبه للكتابة الأدبية، ودوره كشاعر وككاتب.

لم يخف خالد حبه للعمل الأدبي، وتمسكه بالكتابة، لما لها من الأهمية الكبيرة في حياة أي أديب يسعى إلى التعبير عن انشغالاته وكشف معاناته، وكذلك فضح الاستعمار الذي سلب المستضعفين حريتهم، وحرمهم من العيش الكريم في أوطانهم، لذلك فإنه يعتبر الحياة عبارة عن ظاهرة أدبية.

«**La vie, pour moi, n'es qu'un phénomène littéraire**»[3]

يلجأ إليها الأديب من أجل رواية الواقع

«**Ecrire, c'est rendre compte** »[4]

---

[1] Ibid,p 135.

[2] حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2009، ص 272.

[3] MALEK Haddad: op, cit, p 73.

[4] Ibid,p 80.

وهو ما لجأ إليه مالك حداد، حيث اختار العمل الأدبي كوسيلة لمقاومة المستعمر، للتعبير عن رفض الهيمنة والتسلط، وكان من كبار الأدباء الجزائريين الذين برزوا في كتابة الرواية، والقصة والشعر، المقالة الصحفية، ما جعل السلطات الفرنسية تطارده، وتدفع به إلى الفرار خارج الجزائر، فيدفع بذلك الثمن غاليا.

«**pour l'instant, j'habite dans mes livres, et croyez- moi , madame, je paie très cher mon loyer, très cher**».(1)

ولكن وإن كان مالك حداد روائيا، فإنه اشتهر بكتابة الشعر، وحبه الكبير للأشعار.

«**J'écris aussi des romans, et pourtant, ce que je préfère écrire , ce sont des poèmes…**».(2)

وقد ارتبط شعره بالأرض الجزائرية، وببطولات أبناء الجزائر، وهم يتصدون للاستعمار، وقد تميز هذا الشعر ببعده الإنساني، ونزعته الثورية، من خلال فضح الاستعمار، وكشف مخططاته الإجرامية، الأمر الذي جعل هذا الشعر محل إعجاب الكثيرين؛ يقبلون عليه ويقرأونه أينما وُجدوا.

«**On dit à khaled ben tobal que dans les maquis, dans les prisons, ses poèmes se lisaient**».(3)

وبذلك يكون مالك حداد قد أدى واجبه البطولي اتجاه وطنه، وكان في مستوى الدور التاريخي الذي يضطلع به الرجل المثقف إزاء هذا الوطن، حينما تحيق به المخاطر.

---

(1) Ibid,p 137.

(2) Ibid,p 114.

(3) Ibid,p 43.

«**Est- il à la hauteur des hommes, de leurs explosions, de leurs vocation historique ?**».(1)

كما أن أعماله الشعرية قد بلغت درجة عالية من التأثير في النفوس، نظرا لقدرته على صياغة الكلمة الشعرية المعبرة.

هذا ما « **جعل الشاعر الفرنسي الشهير "لويس أراغون" يعجب به ويصفه بأنه من طيور الأغصان العليا**» (2)، وهذا اعتراف صريح بموهبة الرجل وقدرته على تحويل أي شيء يخطر على باله إلى شعر مقاومة.

«**La vocation de cet homme était le bonheur , c'est- à- dire la vie, la vie qui ne se refuse rien, et qui ne refuse rien à Personne, quand il souriait, khaled ben tobal était un programme d'existence, il transformait en poésie tout ce qu'il lui passait par les yeux** ».(3)

كما تتجلى روح المقاومة عنده كذلك من خلال نشاطاته الصحفية، حيث أدرك منذ البداية ما للصحافة من أهمية في بث الوعي في النفوس، خدمة للقضية الجزائرية، من خلال نقل أخبار الحرب العسيرة التي يخوضها الجزائريون ضد أعتى قوة استعمارية في ذلك الوقت، وكشف الجرائم المرتكبة في حق شعب طالب بالحرية والاستقلال فقوبل بالقمع والإبادة الجماعية.

«**Mais il vous arrive d'écrire dans les journaux, ou même que des journaux écrivent sur vous.oui, mais je ne les lis jamais, ou rarement,**

(1) Idem.

(2) أحمد منور: مرجع سابق، ص 111.

(3) MALEK Haddad, op, cit, p 122.

aujourd'hui si je les lis davantage, c'est qu'il ya la guerre dans mon pays».[1]

ويبدو تأثره كبيرا وهو يروي حكاية شعبه المقهور، ويظهر ذلك من خلال تكراره للعبارة.

«Un tel est arrêté, Un tel est torturé, Un tel est a disparu».[2]

كما يبين مدى كراهيته للاستعمار ،الذي تجرد من كل صفات الإنسانية، وهو يسلط على الجزائريين أبشع أنواع الاضطهاد. لهذا راح يصفهم بالوحوش التي لا تشبه الوحوش.

«Les monstres qui ne rassemblent pas à des monstres»[3]

هذا ما جعل منه ذلك الرجل المثقف المحب للكتابة، الذي يؤدي دوره ككاتب، وكشاعر يأخذ على كاهله هموم بلده، ويفكر في مستقبله، ومستقبل وطنه، وهو بذلك في مستوى التطلعات مستصغرا الحب الذي يعتبر من صغائر الأمور.

«Khaled aimait les fleurs,et sa sensibilité artistique n'yétait pour rien(...)c'etait une âme simple à l'image des horizons élémentaires de son pays»[4]

---

(1) Ibid,p 157.

(2) Ibid,p 78.

(3) Ibid,p 43.

(4) Ibid,p 133.

10- موقفه من الكتابة بالفرنسية.

لقد اشتهر مالك حداد بمقولته الشهيرة « **اللغة الفرنسية هي منفاي**» [1] إن في هذه العبارة ما يكشف بوضوح عن موقفه من الكتابة باللغة الفرنسية، حيث أنه وأمثاله من الجزائريين، أُجبروا على تعلم اللغة الفرنسية، وهي لغة العدو، وحُرموا من تعلم لغتهم الأصلية، اللغة العربية، وبذلك فقد انقطعوا عن أحد روافد الثقافة الوطنية، الأمر الذي جعلهم يحسون إحساس المنفي المبعد عن وطنه، وعن أهله...

وبالعودة إلى المدونة نجده – من خلال الشخصية الرئيسية خالد بن طوبال- يؤكد على هذه النظرة، وهذا الموقف، من خلال الحوار والمقابلة الصحفية التي جرت بينه وبين الصحفي السويسري، الذي راح يسأله عن السبب الذي يدفعه إلى الكتابة، فأجابه بالقول: إنني لا أعرف أن أتكلم.

«**Mais alors, porquoi ecrivez- vous ?- c'est très simple, parce que je ne sais plus parler ...**».[2]

إنه لا يعرف أن يتكلم لا بلغته الأصلية التي حرم من تعلمها، ولا باللغة الفرنسية التي لا يجد من يكلمهم بها، لأن الجزائريين آنذاك أميون جهلة...

أما عن المكانة التي ستحظى بها اللغة الفرنسية في جزائر الغد على حد تعبير الصحفي.

---

[1] أحمد منور: المرجع السابق، ص 163.

[2] MALEK Haddadd. Op. cit. p 54.

« **D'après vous , quelle place aura la langue française dans l'Algérie de demain ?**».[1]

فإنه سبق وأن أجاب مالك حداد على هذا السؤال من قبل، حيث يقول: « **على الكتاب الجزائريين الذين ينتمون إلى جيلي، ولهم تكوين ثقافي كتكويني أن يتركوا أماكنهم (...) للكتاب الجزائريين باللغة العربية وأن يقنعوا بترجمة أعمالهم (إلى اللغة العربية) في بلدهم، إننا كتاب جزائريون منفيون في اللغة الفرنسية** »[2]، فهو يدعوهم إلى ضرورة التوقف عن الكتابة بالفرنسية، بعدما تأخذ الجزائر استقلالها، لأنه بعد خروج الاستعمار من الجزائر سوف لن يبقى مبرر للكتابة بغير اللغة الأصلية للبلد، وهو السبيل الوحيد للتخلص من هذه المأساة، التي يعيشها هو وأمثاله من الكتاب الجزائريين الذين يكتبون بالفرنسية.

---

[1] Ibid,p 52.

[2] أحمد منور: المرجع السابق، ص ص 161، 162.

المبحث الرابع: رمزية الرواية.

رواية "Le quai aux fleurs ne répond plus " تمثل مشكلة الصراع المتولد عن تصادم الثقافتين: العربية الإسلامية الممثلة في شخصية خالد، وكذلك وريدة وقسنطينة، وكل ما له علاقة بالجزائر من جهة، والغربية المسيحية التي تمثلها عائلة سيمون، ومونيك، وكل ما في العاصمة الفرنسية باريس من عادات، وتقاليد... من جهة ثانية.

إذا تمعنا في الرواية نجد بأن الكاتب نحج في تصوير ذلك الصراع بين هاتين الثقافتين المختلفتين، من خلال الثنائيات التي وظفها ببراعة للكشف عن أوجه الاختلاف بين الثقافة العربية الإسلامية، والثقافة الغربية، ويمكن أن نكشف عن هذا الاختلاف من خلال المقارنة بين:

1- بين خالد وسيمون:

خالد بن طوبال شخصية مناضلة تائهة، تعيش بعيدا عن الوطن، وعن الزوجة والأولاد، والأصدقاء، تبحث عن ذاتها وثرائها الروحي والفكري، وهو يمثل الرجل الوطني المخلص، الذي يتألم لحال وطنه، وما حل به من دمار وخراب، تعذيب، وتقتيل، تشريد، ونفي... كما يمثل أيضا الشاعر « **في نظرته إلى الأشياء، وفي حكمه عليها، وفي تصويره لها، وفي تفسيره أياها، لقد كان بارعا في أسلوبه**»[1]، وهو قبل كل هذا رمز العفة والشرف، والوفاء والإخلاص للزوجة وللوطن، رغم تمزقه فكريا وثقافيا، ورغم تشرده، وتيهه، وهذا نظرا لتشبعه بروح الثقافة العربية الإسلامية التي تفرض كل ذلك.

في مقابل خالد نجد شخصية سيمون، التي تمثل الرجل الأوروبي الذي يعيش في وطنه بين أهله وأحبابه، بين زوجته وبنته، وهو صاحب مكانة مرموقة، وثراء مادي، إنه

---

[1] العربي دحو: المرجع السابق، ص 130.

يعيش حياة الترف. همه الوحيد في الحياة هو جمع الأموال، وتحسين وضعه المادي؛ ولو على حساب الأخلاق والشرف وسمعة العائلة، لا يهمه في ذلك الصداقة التي جمعته بخالد، كما لا تهمه العلاقة بينه وبين زوجته، بقدر ما يهمه الانغماس في الحياة المادية التي لا تعترف بالأخلاق، والقيم النبيلة، وإنما تعترف بالمتع، والشهوات، وهي سمات الثقافة الغربية.

إذن فبين خالد وسيمون بون شاسع في الثقافة وفي التفكير، وبينهما أيضا اختلاف في الرؤى، وفي الطموح.. كما أنه بينهما أيضا علاقة عدائية دفينة، وهي علاقة المستعمَر بالمستعمِر.

2- بين وريدة ومونيك.

وريدة هي المرأة الجزائرية المكافحة، التي تصارع الحياة، من أجل تربية أبنائها، وتوفير قوت يومها، وهي في سبيل ذلك تجدها تقوم بالأعمال اليدوية المتعبة، داخل البيت وخارجه، لمساعدة زوجها، وتوفير متطلبات حياتها، كما تأخذ على عاتقها ضرورة الدفاع عن وطنها؛ لذلك تساعد المجاهدين في الجبال، وتمدهم بما يلزم، خدمة لوطنها، ودفاعا عن شرفه الذي دنسه الاستعمار.

وهي تتميز بالبساطة والجمال، والخجل، والعفة والعفوية، لا تبالغ في تزيين مظهرها، ولا تتكلف في الاعتناء بجمالها، ما يجعل زوجها متعلقا بها تعلقا شديدا.

بينما مونيك هي رمز المرأة الأوروبية، التي تسعى إلى تحقيق الرغبات المادية، والمتع الجنسية، معتمدة في ذلك على أسلوب التزين، والتعري، والإغراء، لا يهمّها في ذلك شرف الزوج، والعائلة، والسمعة...لذلك نجدها تبحث عن الرجل الذي يشبع شهواتها، ولو كان أجنبيا، معتبرة الخيانة الزوجية شيئا عاديا.

إذن فأوجه الاختلاف بين صاحبة العينين السوداوين

«**Ourida, ourida – les yeux– noirs** »[1] وصاحبة العينين الزرقاوين والشفتين الحمراوين «**Et sa bouche était rouge. Et ses yeux étaient bleus** »[2] واضحة فالأولى تسعى إلى تحصيل رزقها، والاهتمام بأهلها، والدفاع عن وطنها، والنظرة إلى الحياة بكل بساطة وعفوية، بعيدا عن التزيين، والتنميق، والتكلف، بينما تسعى الثانية وراء الحياة المادية، التي تهتم بالشهوة، والمتعة الجسدية، بعيدا عن الأخلاق، والقيم الروحية، وهذا – طبعا– ناجم عن اختلاف في الثقافة وفي العادات والتقاليد...

3- بين باريس وقسنطينة.

باريس هي فرنسا، وفرنسا هي الاستعمار، وهي رمز التجبر والاستبداد بفعل أعمالها الإجرامية التي ارتكبتها في حق الشعوب والدول الضعيفة، في مطلع القرن التاسع عشر، حينما كانت تمثل أكبر قوة عسكرية آنذاك، وتبقى جرائمها الشنيعة المرتكبة في الجزائر شاهدة على ذلك، والتي أدت بالكثير من الجزائريين إلى اختيار حياة المنفى، مثلما فعل خالد بن طوبال، ولهذا مثلت له باريس كابوسا حقيقيا، فرغم حياة المدينة البراقة التي تطبعها إلا أنه ظل تائها ممزقا محروما من لذة الحياة، هذه اللذة التي وجدها في قسنطينة مسقط الرأس، وأرض الآباء والأجداد، وهي تبقى ذلك الموطن الحقيقي الذي يحن إليه كل مهاجر، وكل منفي، كما تبقى بلاد الذكريات تمارس فيها أفضل التقاليد والعادات.

---

(1) MALEK Haddad. OP. CIT. P 53.

(2) Ibid,p 37.

4- بين العائلة الجزائرية والعائلة الفرنسية.

العائلتان الجزائرية ممثلة في خالد، ووريدة، وأبنائهما الثلاثة، والفرنسية ممثلة في سيمون، ومونيك، وابنتهما، هما نموذجان للمجتمعين الجزائري والفرنسي، اللذين يختلفان في القيم، وفي العادات، والتقاليد، وفي الثقافة، وفي التفكير، وكذلك في نمط العيش.

يبدأ هذا الاختلاف أولا من العائلة، حيث أن العائلة الجزائرية تُكثر من إنجاب الأولاد، بينما العائلة الفرنسية تقلل من ذلك، ثم إن تقاليد العائلة الجزائرية تعطي الرجل الأولوية على المرأة، وخاصة إذا تعلق الأمر ببعض العلاقات الاجتماعية الحساسة، كأن يتولى هو بنفسه استقبال الضيوف الرجال، بدل زوجته التي يبقى احتكاكها بهؤلاء الضيوف محدودا جدا، وأحيانا مقتصرا على تحضير الطعام فحسب، بينما لدى العائلة الفرنسية فإن المرأة ترتجل، وتندفع إلى استقبال الرجال الأجانب بكل جرأة، كما أنها تمارس معهم كل الطقوس بلا حرج، وهذا ما يفسر الانحلال الأسري المنتشر بكثرة في المجتمعات الأوروبية، مقابل التماسك العائلي داخل الأسر الجزائرية.

تناولت في هذا القسم التطبيقي بالتحليل رواية مالك حداد " رصيف الأزهار لا يجيب " كما ترجمها الأديب السوري " ذوقان قرقوط " ، وهذا بعدما عرفت بصاحب الرواية تعريفا مختصرا ، وبعدما قمت بإعطاء ملخص مقتضب لروايته، حيث قمت بتحليل صور ونماذج المقاومة الثقافية فيها من خلال تتبع أحداثها وتفاعل الشخصية الرئيسية فيها ومعها ، حيث كان خالد بمثابة الرجل الجزائري الوفي لجزائريته ولهويته رغم ابتعاده عن وطنه، واختياره حياة المنفى.. وقد تجلى ذلك من خلال تمسكه بالعادات والتقاليد الجزائرية، والقيم الدينية النبيلة المستوحاة من حنايا الدين الإسلامي القويم، وكذلك اعتزازه بانتمائه القومي العربي، وارتباطه وتعلقه بالتاريخ الوطني، ونبذه باريس وعاداتها الغربية الغريبة عن ثقافته .. هذا بالإضافة إلى تصديه لإغراءات المرأة الفرنسية، وحبه للكتابة، واضطلاعه بواجبه ككاتب وكشاعر يخدم قضايا وطنه المصيرية؛ بدء بدعوته إلى التخلي عن الكتابة بالفرنسية .

وفي الأخير قمت بتحليل الأبعاد الرمزية لهذه الرواية؛ باعتبارها شكلا من أشكال الصراع الثقافي بين الهوية الجزائرية في بعدها العربي الإسلامي، والهوية الفرنسية ذات التوجه الغربي المسيحي.. فبين باريس وقسنطينة، وبين "خالد" و"سيمون"، وبين "وريدة" و"مونيك"، وبين العائلة الجزائرية والعائلة الفرنسية، صراع في الثقافة واختلاف في العادات والتقاليد والديانة بل هو صراع فكري بين المستعمِر والمستعمَر.

خاتمة

تناول هذا البحث مسألة المقاومة الثقافية، التي اتخذ منها الكثير من الأدباء والمثقفين، أداة للدفاع عن قضايا الأمة، وثوابتها، ورموزها... ومن بينهم الروائي الجزائري "مالك حداد"، الذي سخر موهبته الشعرية، والروائية للدفاع عن وطنه، الذي حاقت به الأخطار بسب الاستعمار وما ارتكبه من جرائم...فبعدما اضطرته ظروف الحرب، اتخذ من المنفى مستقرا له.

لقد تولد في نفسه وعي وطني، وخاصة بعد إحداث الثامن من مايو عام 1945، وما خلفته هذه الأحداث من مآس ، فراح يسجل سخطه على ما فعلته القوة الاستعمارية بشعبه، من تقتيل، وتعذيب، ونفي... وهذا من خلال كتاباته الروائية، وعلى رأسها رواية "**Le quai aux fleurs ne répond plus**" التي شحنها بطاقة شعرية، فجر من خلالها مدى حزنه وانكساره.

وإن كان مالك حداد قد اختار اللغة الفرنسية وسيلة للتعبير عن آهاته، فإنه استطاع أن يظهر لنا مدى تمسكه بأصالته، واعتزازه بهويته، وافتخاره بانتمائه الجغرافي والحضاري. ويظهر ذلك من خلال رفضه للحياة الباريسية القاسية، وتقززه من عاداتها الاجتماعية الغريبة، رغم إغراءاتها المادية اللامعة. وهذا نوع من أنواع المقاومة الثقافية، التي واجهها مالك حداد، من خلال الشخصية الرئيسية "خالد بن طوبال"، شأنه في ذلك شأن معظم المثقفين الجزائريين، الذين أرغمتهم الظروف على الكتابة باللغة الفرنسية.

وفي نهاية هذا البحث يمكن أن أستعرض أهم النتائج التي توصلت إليها، من خلال هذه الدراسة:

– الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية في مجمله جاء كنتيجة حتمية للأوضاع الاجتماعية، والسياسية، التي عاشها أولئك الأدباء، الذين أرغمتهم الظروف على تعلم اللغة الفرنسية، باعتبارها لغة العدو، بعدما حُرموا من تعلم اللغة العربية. وإذ هم كذلك

فإنهم يعيشون ما يسمى ب "مأساة اللغة"، وخاصة مالك حداد، الذي يعتبر اللغة الفرنسية منفاه. وهي وسيلة وليست غاية.

– الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية تشكل فعلا أداة من أدوات المقاومة الثقافية، لأنها – وإن كانت في البداية تدعو إلى الاندماج، وتمجد الاستعمار– إلا أنها ما فتئت تتحول في مضمونها، لتقف في صف الثورة منذ بداية الخمسينات، تصور أحداثها، وتمجد أبطالها، وتفضح أعداءها.

– مالك حداد وبرغم أن البعض يلومونه على السلبية التي ظهر عليها إزاء الثورة، وعلى الروح الانهزامية التي بثت فيه، فإنه يبقى مناضلا مخلصا لوطنه، متشبثا بهويته الجزائرية؛ فرغم الإغراءات التي واجهها، إلا أنه لم ينسلخ، وبقي يردد عبارته الشهيرة "الطيور لا تبني أعشاشها في مهب الريح".

– إن أعمال مالك حداد عموما، وروايته **Le quai aux fleurs ne répond plus** « خصوصا حبلى بصور المقاومة الثقافية، وهي تقدم نماذج وأمثلة عن تصادم الثقافتين العربية الإسلامية، والغربية المسيحية؛ فالأولى تولي عناية كبيرة للأشياء المادية، وللمتع الحياتية، بينما الثانية تهتم بالقيم النبيلة، والأخلاق الإنسانية الرفيعة.

– بقي في الأخير أن أشير إلى أنني خلصت إلى قناعة مفادها أن الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، منه ما هو جزائري، وإن كتب بلغة أجنبية، ومنه ما لم يكتسب من الجزائرية سوى جنسية صاحبه، وخاصة ما كتب منه قبل الخمسينات، وهذا ما يبقي الأبواب مفتوحة أمام آراء وأبحاث أخرى، يمكن أن تفضي إلى نتائج مغايرة تثبت العكس.

الملخص

1- الملخص باللغة العربية:

تناولت في هذا البحث مسألة المقاومة الثقافية في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، انطلاقا من أهم أعمال مالك حداد الروائية، باعتباره واحدا من أهم أعلام هذا الأدب، فقد كرس حياته، وسخر قلمه، في سبيل الدفاع عن القضايا العادلة، التي تمس بشرف وطنه، الذي تعرض لظاهرة الاستعمار.

إن هذا الاستعمار الفرنسي قد عمل على ضرب المقومات الأساسية للشخصية الجزائرية من دين، ولغة، وعادات، وتقاليد... وهذا من خلال نشر الفتن، والبدع والخرافات، ومنع تعليم اللغة العربية، الأمر الذي أدى ببعض المثقفين الجزائريين من أمثال مالك حداد، إلى مواجهة هذا الوضع الصعب، الذي شكل له تحديا ثقافيا، أرغمه على المقاومة والصمود، وعدم الخضوع والاستسلام، فراح يؤلف الرواية ويكتب الشعر، مصورا من خلالهما مدى بشاعة الأعمال الإجرامية، التي أقدمت عليها السلطة الاستعمارية، والتي خلفت الكثير من الضحايا، وسببت العديد من الآلام، كما دفعت بالعديد من الجزائريين إلى السجون والمنفى...

وعملا مني على ربط العمل الأدبي بأسبابه التاريخية، ومسبباته الاجتماعية والسياسية، تطرقت في هذه الدراسة إلى التعريف بالأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، وإلى الظروف التي أحاطت بنشأة هذا الأدب، كما حاولت التعريف بهويته، التي ظلت نقطة خلاف بين النقاد والأدباء الذين اختلفوا في نسبته؛ فهناك من اعتبره جزائريا بامتياز، وهناك من نسبه إلى الأدب الفرنسي، ولهذا حاولت أن أبدي وجهة نظري في هذه القضية، حيث رأيت أن هذا الأدب قد تأرجح قبل الثورة التحريرية باحثا عن جنسيته التي وجدها بمجرد انتهاء الحرب العالمية الثانية، فصار جزائريا خالصا.

كما تناولت بالتحليل أهم التحولات التي طرأت على الأدب الجزائري ذي التعبير الفرنسي، وخاصة على مضامينه. وهذا بعدما تتبعت مسار تطوره من النشأة إلى التأصيل.

لقد حاولت من خلال هذا البحث تحديد بعض المصطلحات والتعريف ببعض المفاهيم كالمقاومة، والمقاومة الثقافية، وذلك لما لها من دور فعال في مواجهة ظاهرة الاستعمار، التي عانى منها المجتمع الجزائري.

إن تحليل واقع المجتمع الجزائري خلال فترة الاستعمار، لا يمر إلا عبر الإحاطة بالملامح السياسية، والثقافية في الجزائر، خلال العهد الاستعماري، ولذلك قمت بإعطاء لمحة عامة عن هذه الظروف، التي نشأ في خضمها الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، الذي يشكل أسلوبا من أساليب المقاومة الثقافية.

وحتى تكتمل هذه الدراسة، ويكون للعمل النظري قيمة علمية، أوليت الجانب التطبيقي اهتماما كبيرا، فاخترت لذلك رواية مالك حداد، وهي رواية" **Le quai aux fleur ne répond plus**"، التي رأيت أنها أليق بهذا البحث، وأنها جديرة بتحقيق أهداف الدراسة. فدرستها متتبعا صور المقاومة الثقافية التي تعج بها، وهذا من خلال دراسة الشخوص والأمكنة.

إن هذه الدراسة أوصلتني في الأخير إلى الاعتقاد، بأن رواية مالك حداد بأحداثها المتشعبة، تمثل وجها من أوجه الصراع الثقافي والهوياتي بين الثقافة العربية الإسلامية الأصلية، والثقافة الغربية المسيحية الوافدة.

2- الملخص باللغة الأجنبية.

La présente recherche s'est penchée sur la question de la résistance culturelle en littérature algérienne d'expression française à partir des oeuvres de MALEK HADDAD, l'un des piliers de cette littérature. Il s'est engagé, dans ses écrits, à défendre la cause juste de son pays qui a tant souffert de l'occupant français qui a tout fait pour effacer les constantes du peuple algérien, telles que la religion, la lange , les traditions en semant la zizanie et en faisant naitre la discorde.

Son objectif visant à imposer l'usage unique du français aux indigènes a poussé les intellectuels algériens, comme MALEK Haddad, à ne pas rester les bras croisés. Ils ont dénoncé, dans leurs romans et poèmes, les crimes barbares commis par les autorités coloniales.

Afin que le présent travail soit lié aux cironstances historiques, sociale et politiques, nous nous somme intéressé à la définition de la littérature algérienne d'expression française , aux événements à l'origine de sa naissance. Nous avons, également, abordé la définition de son identité qui demeure un sujet de dissension entre les hommes de lettres et les critiques littéraires qui n'arrivent pas à s'entendre sur son appartenance. Certains la

considèrent comme une littérature algérienne par excellence. Pour d'autres, elle fait partie prenante de la littérature française.

A notre humble avis, cette littérature a trouvé son identité juste après la fin de la seconde guerre mondiale en devenant pure algérienne.

Nous avons, aussi, traité des modifications subies par cette littérature, notamment en ce qui concerne le contenu.

Nous avons essayé, à travers cette contribution, de définir certains termes comme la résistance, la résistance populaire, largement utilisée dans la lutte contre le colonialisme.

L'analyse de la réalité de la société algérienne durant la période coloniale passe inéluctablement par circonscrire les aspects politique et culturels. C'est pourquoi nous avons donné une d'ensemble des circonstances politique et culturelles dans lesquelles est née la littérature algérienne d'expression française qui représente un moyen de résistance culturelles.

Pour que la partie théorique de cette recherche ait une valeur scientifique, nous lui avons donné le primat . Pour ce faire, nous avons choisi le roman de MALEK HADDAD qui s'intitule :« **Le**

quai aux fleurs ne répond plus » qui nous a semblé approprié à ce type de recherche.

Pour que notre travail atteigne ses objectifs, nous avons étudié, suivi les images de la résistance culturelle en étudiant les personnage et les lieux.

A travers cette étude, nous pensons que le roman de MALEK HADDAD avec ses intrigues compliquées représente l'un des aspects du conflit culturel et identitaire entre la culture arabo-musulmane authentique et la culture occidentale chrétienne introduite par le colonialisme français.

قائمة المصادر والمراجع

1- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.

2- الترمذي (الحاسن أبو عيسى): سنن الترمذي أبواب الطهارة، المجلد الأول، دار الكتاب العربي، ط3، بيروت.

أولا: المصادر:

1- MALEK Hadad : le quai aux fleurs ne répond plus, édition réni julliard, Paris, 1961.

2- مالك حداد: ليس في رصيف الأزهار من يجيب، تر ذوقان قرقوط، الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصر، 1999.

3- ياسمينة خضرا: الصدمة، ترجمة نهلة بيضون، Ed, julliard, paris, 2005.

ثانيا: المراجع:

أ- الكتب العربية

1- إبراهيم خليل: بنية النص الروائي(دراسة) ، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2010.

2- إبراهيم مياسي: مقاربات في تاريخ الجزائر (1830- 1962م)، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 2011.

3- أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي،ج1(1500-1830)، دار البصائر، (طبعة خاصة)، الجزائر، 2007.

4- أحمد منور: الأدب الجزائري باللسان الفرنسي نشأته وتطوره وقضاياه، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2007.

5- أم الخير جبور: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية(دراسة سوسيونقدية)، دار ميم للنشر، الجزائر، ط1، 2013.

6- آمنة بلعلى: المتخيل في الرواية الجزائرية من المتماثل إلى المختلف، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2011.

7- أنيسة بركات درار: أدب النضال في الجزائر (من سنة 1945 حتى الاستقلال)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984.

8- بسام العسلي: عبد الحميد بن باديس وبناء قاعدة الثورة الجزائرية، دار الرائد، دار النفائس، الجزائر، ط خاصة، 1984.

9- حسن بحراوي: بنية الشكل الروائي الفضاء، الزمن، الشخصية، المركز الثقافي العربي، المغرب، ط2، 2009.

10- رابح لونيسي: التيارات الفكرية في الجزائر المعاصرة بين الاتفاق والاختلاف (1920 – 1954)، دار كوكب العلوم، الجزائر، ط2، 2012.

11- رابح لونيسي: مالك حداد المثقف المتمرد (سلسلة نوابغ جزائرية)، دار كوكب العلوم، الجزائر، ط2، 2012.

12- رابح لونيسي: محاضرات وأبحاث في تاريخ الثورة الجزائرية، دار كوكب العلوم، الجزائر، ط1، 2011.

13- سعاد محمد خصر: الأدب الجزائري المعاصر، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، 1967.

14- الصادق العلالي: العلاقات الثقافية الدولية (دراسة سياسية قانونية)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2006.

15- صالح فركوس: المختصر في تاريخ الجزائر من عهد الفينيقيين إلى خروج الفرنسيين (814 ق.م- 1962م)، دار العلوم للنشر والتوزيع، عنابة، الجزائر، 2002.

16- عبد الرحمان شيبان: مقدمة مجلة الشهاب (أنشأها الإمام عبد الحميد بن باديس)، دار المعرفة، الجزائر، 2009.

17- عبد العزيز شرف: المقاومة في الأدب الجزائري المعاصر، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1، 1991.

18- عبد القادر حلوش: سياسة فرنسا التعليمية في الجزائر، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

19- عبد القادر فضيل ومحمد الصالح رمضان: إمام الجزائر عبد الحميد بن باديس، دار الأمة للطباعة والترجمة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1998.

20- عبد الملك مرتاض: نهضة الأدب العربي في الجزائر (1925، 1954)، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1983.

21- عبد الوهاب بن خليف، تاريخ الحركة الوطنية من الاحتلال إلى الاستقلال، دار طليطلة، الجزائر، ط1، 2009.

22- العربي دحو: إطلالات مقارب للأدب الجزائري الحديث ، دار الهدى،عين مليلة، الجزائر، 2011.

23- عمار يزلي: الثقافة في مواجهة الاحتلال(دراسة)، منشورات السهل، الجزائر، 2009.

24- محمد الصالح الصديق، كيف ننسى وهذه جرائمهم، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2011.

25- محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر والخارج، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1983.

26- محمد طهاري: الشيخ عبد الحميد بن باديس (الحركة الإصلاحية في الفكر الإسلامي المعاصر)، دار الأمة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2010.

27- محمود قاسم: الأدب العربي المكتوب بالفرنسية، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1966.

28- واسيني الأعرج: اتجاهات الرواية العربية في الجزائر (بحث في الأصول التاريخية والجمالية للرواية الجزائرية)، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1986.

29- يوسف الأطرش: المنظور الروائي عند محمد ديب، منشورات اتحاد الكتاب الجزائريين، الجزائر، 2004.

ب- الكتب المترجمة إلى العربية.

1- أنندري لوكورتوا: جزائر الخمسينات شهادة قس، ترجمة: عبد القادر بوزيدة، لزهاري لبتر للنشر، الجزائر، 2013.

2- عبد القادر جغلول: الاستعمار والصراعات الثقافية في الجزائر، ترجمة: سليم قسطون، دار الحداثة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (لبنان)، ط1، 1984.

3- غي برفيليي: النخبة الجزائرية الفرانكوفونية (1830 – 1962)، ترجمة: م حاج مسعود وآخرون، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

4- مالك بن نبي: مشكلة الثقافة، ترجمة: عبد الصبور شاهين، دار الوعي للنشر والتوزيع، الجزائر،ط1، 2011.

5- مصطفى الأشرف: الجزائر الأمة والمجتمع ، ترجمة:حنفي بن عيسى،دار القصبة للنشر، الجزائر، 2007.

ت- الكتب الأجنبية.

1-Jean Déjeux : situation de la littérature maghrébine de langue française, éd office des publications, universitaires, Alger, 1982.

ث- القواميس والمعاجم.

1- ابن منظور(أبو الفضل محمد بن جلال الدين مكرم الأنصاري): لسان العرب، المجلد الخامس، دار الفكر، ط الأولى، بيروت، 2008.

2- المطبعة الكاثوليكية: المنجد في اللغة والأعلام، دار المشرق، بيروت، ط20، 1969.

ج- الرسائل الجامعية.

1- إبراهيم لقمان: ملامح المقاومة ضد الاستعمار في شعر محمد العيد آل خليفة (دراسة فنية)، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، 2007.

2- حيزية سلمى: إستراتيجية الإيضاح في الترجمة، رواية "رصيف الأزهار لا يجيب" لمالك حداد أنموذجا (دراسة تحليلية) مذكرة لنيل شهادة الماجستير في الترجمة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2008/ 2009.

3- نجية طهاري: بناء الشخصية في مسرح أحمد رضا حوحو، مذكرة لنيل شهادة الماجستير، جامعة باتنة، 2010، 2011.

ج- المجلات والدوريات.

1- الرواية بين ضفتي المتوسط: أعمال اليوم الدراسي للمجلس الأعلى للغة العربية، 2010/05/11، الجزائر.

2- سلاطنية بلقاسم ونوي إيمان: الاغتراب الثقافي عند الطلبة الجامعيين، دراسة ميدانية على عينة من طلبة القطب الجامعي شتمة (بسكرة)، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 11، جوان 2013.

3- سليم بتقة: الرواية الجزائرية، سرد الهوية ورهانات الكتابة، مجلة الروائي 2010/07/28.

4- مبروك قادة: إشكالية الانتماء القومي للأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية، مجلة إنسانيات.

5- نقاز سيد أحمد: الأسرة الجزائرية أثناء الاحتلال، مجلة المصادر، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية وثورة أول نوفمبر 1954، العدد 13، الجزائر، 2006.

6- نوال بن صالح: الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية، صراع اللغة والهوية،مجلة المخبر،العدد السابع 2011.

خ- الأنترنيت.

1- جريدة الاتحاد، 29 يونيو Alittihad. Ae/ details. Php.2013

2- محمد فيضي 24 يونيو Maodoo3. Com.2014

3- منصور عمايرة: المقاومة في الأدب الجزائري، 2012/10/13. www.Aroussi, org.

4- موقع اجتماعي www. ejtemay. Com/ showthread.

5- ويكيبديا.

الفهرس

فهرس المحتويات

العنوان **الصفحة**

دعاء

شكر وتقدير

إهداء

المقدمة.....أ- ب- ت- ث- ج - ح-خ- د

الفصل الأول: إشكالية الرواية الجزائرية المكتوبة بالفرنسية.....ص16

مقدمة:.....ص16

المبحث الأول: نشأة الرواية الجزائرية بالفرنسية.....ص18

المطلب الأول: المرحلة الأولى (1920م إلى 1948م) ص18

المطلب الثاني: المرحلة الثانية (من 1952م إلى الاستقلال) ص20

المطلب الثالث: المرحلة الثالثة (من منتصف الستينات إلى بداية التسعينات).....ص22

المبحث الثاني: تحولات الكتابة في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية على مستوى المضامين.....ص25

المطلب الأول: الأدب الاندماجي.....ص25

المطلب الثاني: الأدب الثوري الوطني.....ص29

المطلب الثالث: أدب النزعة الاحتجاجية.....ص31

المبحث الثالث: هوية الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.....ص33

المطلب الأول: القائلون بقومية الأدب.....ص33

المطلب الثاني: القائلون بأنه أدب فرنسي.....ص35

المطلب الثالث: القائلون بأنه أدب بلا هوية.....ص38

خاتمة.....ص41

الفصل الثاني: المقاومة الثقافية بين الواقع والمتخيل.....ص45

مقدمة.....ص45

المبحث الأول: مفهوم المقاومة الثقافية.....ص46

المطلب الأول: تحديد المصطلحات.....ص46

أولا: مفهوم المقاومة.....**ص46**

ثانيا: مفهوم الثقافة.....**ص47**

ثالثا: المقومة الثقافية في الجزائر.....**ص49**

المطلب الثاني: الواقع الثقافي في المتخيل السردي في الأدب الجزائري المكتوب بالفرنسية.....ص50

أولا: في الرواية.....**ص54**

ثانيا: في الشعر.....ص57

المبحث الثاني: الملامح السياسية والثقافية في الجزائر إبان الاحتلال الفرنسي.....ص61

المطلب الأول: السياسة الفرنسية في الجزائر.....ص61

أولا: ضد اللغة العربية.....ص61

ثانيا: ضد الدين الإسلامي.....ص65

المطلب الثاني: الملامح السياسية.....ص70

أولا: ظهور الأحزاب السياسية.....ص72

ثانيا:تنوع الخطاب الإيديولوجي الجزائري.....ص75

1- الخطاب التقليدي.....ص75

2- الخطاب الاندماجي.....ص78

3- الخطاب الوطني (الإصلاحي) ص82

المطلب الثالث: الملامح الثقافية.....ص83

أولا: تشكيل النوادي والجمعيات الثقافية.....ص83

ثانيا: ظهور الصحافة.....ص89

خاتمة.....ص93

الفصل الثالث: تجليات المقاومة الثقافية في الرواية.....ص96

مقدمة.....ص96

المبحث الأول: التعريف بمالك حداد.....ص97

المبحث الثاني: ملخص محتوى الرواية.....ص99

المبحث الثالث: صور المقاومة الثقافية في الرواية.....ص100

المبحث الرابع: رمزية الرواية.....ص126

خاتمة.....ص130

الخاتمة.....ص132

الملخص.....ص135

قائمة المصادر والمراجع.....ص141

الفهرست.....ص148